تنوير البصائر

بسيرة (الشيخ طاهر)

تتضمن سيرة الاستاذ العلامة الجليل الشيخ طاهر
الجزائري منذ نشأته الى وفاته واثبات عظمته
وكونه عضواً عاملاً في جثمان الهيئة الاجتماعيه
طيب الله ثراه

بقلم

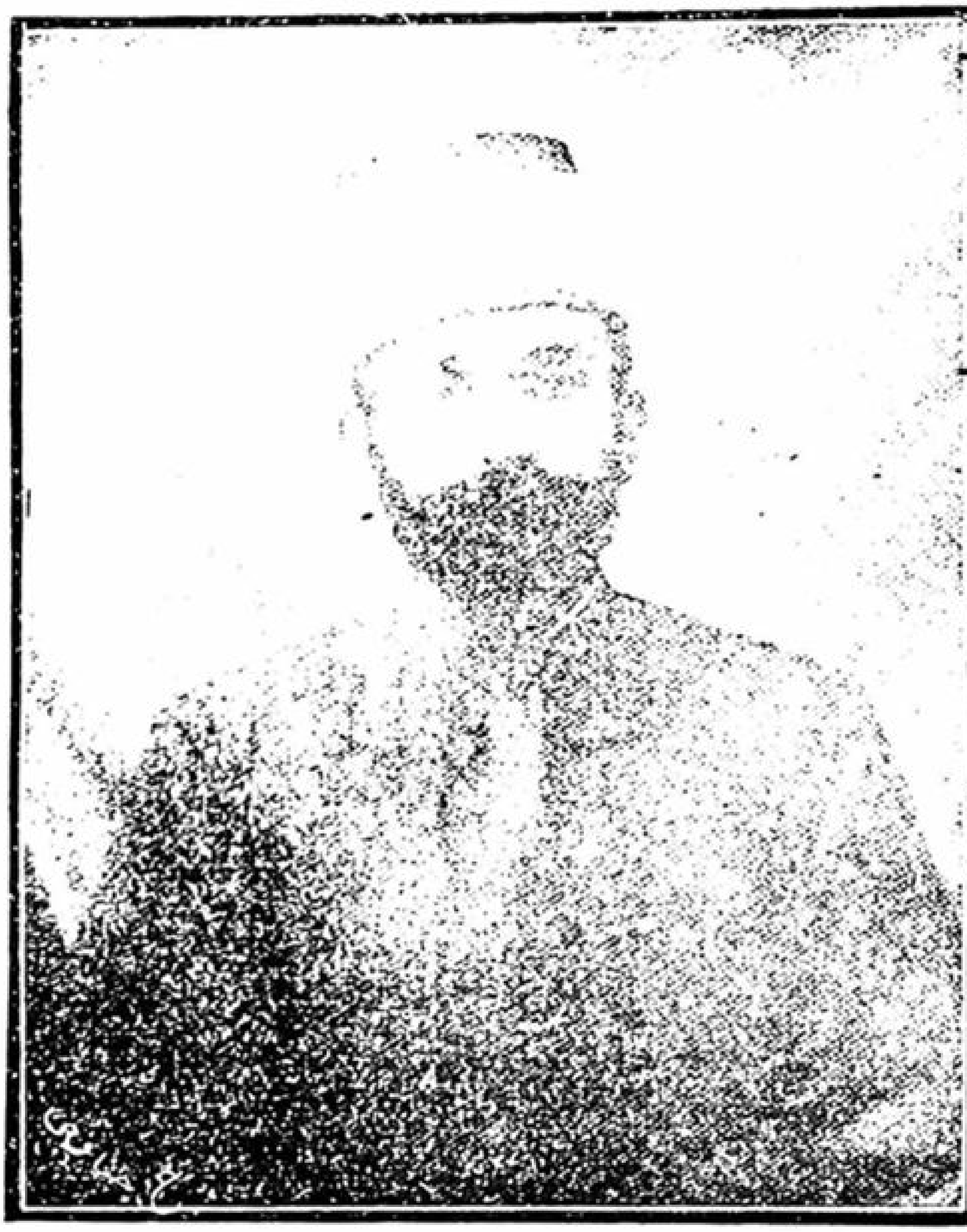
محمد سعيد الباني
غفر له

طبع في مطبعة الحكومة العربية السورية سنة ١٣٣٩ – ١٩٢٠

فهرست

كتاب تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر

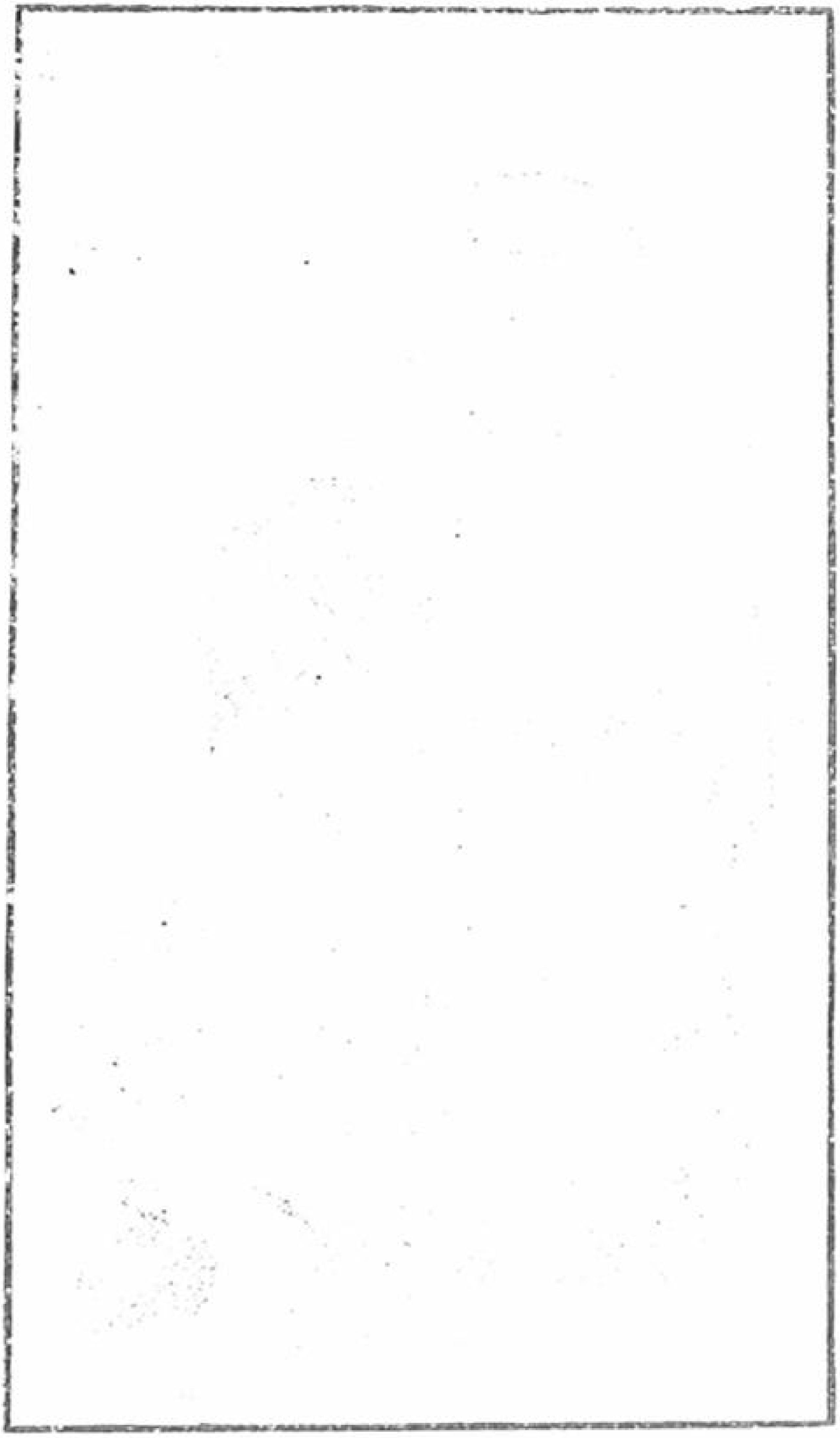
الصحيفة	الموضوعات



مؤلف الكتاب

محمد سعيد الباني الدمشقي

ولد في ذي القعدة سنة ١٢٩٦ هـ



صاحب الترجمة الشيخ طاهر الجزائري ولد بدمشق سنة
١٢٦٨ وتوفي سنة ١٣٣٨ هـ



استاذ صاحب الترجمة الشيخ عبد الغني الغنيمي الشهير بالميداني
ولد سنة ١٢٢٢ وتوفي سنة ١٢٩٨ هـ

تنوير البصائر

بسيرة (الشيخ طاهر)

تتضمن سيرة الاستاذ العلامة الجليل الشيخ طاهر
الجزائري منذ نشأته الى وفاته واثبات عظمته
وكونه عضواً عاملاً في جثمان الهيئة الاجتماعيه
طيب الله ثراه

بقلم

محمد سعيد الباني
غفر له

طبع في مطبعة الحكومة العربية السورية سنة ١٣٣٩ — ١٩٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تعالى على جزيل نعمائه . والصلاة والسلام على خاتم رسله وانبيائه .

المدخل

كان لأفول كوكب العلم البازغ استاذنا العلامة الجليل الشيخ طاهر الجزائري . طيب الله ثراه وأحسن مثواه . رنة اسف واسوأ وقع في قلوب ائمة الدين ورجال العلم والادب وقادة الافكار وفلاسفة الاجتماع والعمران من المشارقة والمستشرقين . فانبروا للمباراة في رثائه وتأبينه فنظم نوابغ الشعراء من بحر ادبهم الوافر مايزري بقلائد العقيان . ونمق افاضل الكتاب من مديد علمهم الكامل ما يفوق عقود الجمان . وانى لي بمضارعة خاطرهم السريع . وباعهم الطويل . لولا مايقضي عليّ الواجب به من ادلاء دلوي بين دلائهم وان لم يدرك الظالع شأو الضليع . فرأيت ان اردف ما أسسوه على قوافي الشعر وفواصل السجع من

جواهر الادب . وشذور الذهب بشذرة تثبت عظمة فقيدنا عَلَى اسلوب تبدو من خلاله الحقائق الناصعة . بالبراهين المنطقية القاطعة . والنظريات العلمية الساطعة . ضارباً صفحاً عن المقدمات الشعرية المزدانة بيواقيت البديع . وجواهر التطريز والترصيع . لان هذه المقدمات التخيلية التي تبسط منها النفوس في نحو الوصف والمدح والنسيب . او تنقبض في نحو التظلم وشكوى الزمان والتهويل والتأبين والتأنيب . هي اقرب الى ما يتعلق باثارة العواطف منها الى ما يقصد منه فلسفة التاريخ وتسجيل الحقائق . فاذا كان البلغاء ينمقون مراثيهم بانواع اساليب المجاز فانا اعرب بلسان الحقيقة فلا اقول كسفت الشمس او خسف القمر ولا اقول زلزلت الارض زلزالها بل اقول ان العالم الاسلامي خصوصاً العربي قد اصيب بخطب فادح لان عظمة المصيبة بقدر عظمة من أُصبنا به . والبحث عن عظمته موضوع جلل تتوقف نتيجته عَلَى مقدمة لا بد من تمهيدها وان تخللها الاطناب او الاسهاب تمتّ بي الى المقصد الذي ارمي اليه وهو تبيان سيرة فقيدنا مبتدءاً بفواضله التي هي اشرف من الفضائل وهي تشتمل على اعماله وآثاره المتضمنة ما يأتي وهي بذله جهد

المستطاع في انشاء المدارس والمكاتب واصلاحها وتصنيفه الكتب النافعة للاحداث والمبتدئين في دور شبابه · تشبثه بجمع شتات الكتب المبعثرة · استثارته دفائن اللغة العربية · عنايته باحياء التاريخ ونبش الآثار · سعيه وراء التوفيق بين الدين والعلم والعمران · دعوته الى الاخلاق والتربية · تنشيطه على انتشار الصحافة · ودعوته الى مطالعة الصحف السيارة والمجلات · ارشاده الى الكتب النافعة · خلاصة تتضمن دعوته الى كثير من خصال الخير وبقية مؤلفاته في دوري الكهولة والشيخوخة · ثم مثنياً بفضائله المشتملة عَلَى ما يأتي وهو بيان علمه وفضله وتحصيله · اسلوبه في التعليم والارشاد آراؤه واطواره · احواله واخلاقه · مقته الحكومات الغشمة وقوة حدسه ومداركه في السياسة · سياحته · احواله الروحية والشخصية · مولده ونشأته ونسبه وحليته · اواخر ايامه ووفاته ·

تنبيه بان التصيص لا يدل على التخصيص الخ ثم اتيت بخاتمة اجتماعية تبرهن عَلَى عظم المصاب بالفقيد وقد ختمت بالنصائح الغراء للنابتة الجديدة فاليكم ايها القراء الكرام ازف هذه الدرة اليتيمة والجوهرة المصونة ·

دمشق : اواخر سنة ١٣٣٨ هجرية　　　　محمد سعيد الباني

المقدمة

اذا كانت مراتب العظمة تختلف باختلاف مراتب الموضوعات وغاياتها فجدير بالعظمة العلمية الدينية ان تكون ارفع واشرف من كل عظمة في نظر من يعتقد ان الدين ملاك السعادتين في النشأتين سواء كان من علماء الدين المذعنين بالدليل والبرهان اومن عوام البشر المؤمنين انقياداً واستسلاماً بسائق شعور وجداني يعسر انتزاعه من القلوب متى خالطتها بشاشته

واذا انكر المادي الذي لايعتقد بما وراء المادة هذه العظمة لذاتها لان القول بها قضية نظرية تحتاج الى تقويم الادلة وتوجيه النظر فلا يسعه انكار ما هو مستفاد من الحس وهو ان الذين تتكون منهم اكثرية المجتمع البشري في كل زمان ومكان هم المتدينون عَلَى اختلاف مللهم ونحلهم لان الجبلة البشرية مفطورة عَلَى التدين حتى كاد ان يكون لازماً ذاتياً من لوازم البشرية . وطبيعة غريزية من طبائع الانسانية . ينشأ مع الطفولة وينمو بنمو المدارك بخلاف الالحاد فانهُ عرض طاريءٌ عَلَى التدين الفطري منبعث عن الشبه العلمية التي يتراءى لمن علقت بذهنه انها

والدين عَلَى طرفي نقيض

ومنشأ ذلك النظر السطحي وعدم التضلع بجوهر العلم وروح الدين . وعدم احكام النظر ودقة التطبيق بين النظريات العلمية والقضايا الدينية .

عَلَى ان المرء مهما كان عريقاً بالالحاد فلابد ان تستولي عليه الحيرة وتنتابه الشكوك وتتجاذبه الآراء المتناقضة وتأخذه النعرة الدينية عند المباراة والمنافسة وتتجلى عَلَى قلبه هيمنة الدين حينما تلم به القوارع وتنزل به المصائب فكم من رجال رأيناهم حين الرخاء ينكرون الاله وجميع ما له تعلق بما وراء الطبيعة . وحين الشدائد يؤمنون بالله تعالى ويصلون ويصومون ويضرعون اليه تعالى ان ينقذهم مما حاق بهم او يرحمهم ويحسن مثواهم اذا قضوا نحبهم فلو لم يكونوا في ريبة من الامر في البداية لما آمنوا في النهاية

ونرى ان فطاحل رجالات العلم في الغرب اوصلتهم نتيجة ابحاثهم العلمية الى التصريح بان الشعور الديني غريزة فطرية في النفوس البشرية كما افضت بهم ايضاً نتيجة تجاربهم الى القول بضرورة الوازع الديني بعد ان كانوا يجنحون الى الاكتفاء بالمؤثر الادبي لان الاعتقاد بوجود الخالق والتصديق بما جاءت به رسله

من الحشر والنشر والوعد والوعيد والحساب والعقاب يستوجبان خضوع النفوس البشرية الامارة بالسوء وانقيادها الى اتباع الخير المأمورة به واجتناب الشر المنهية عنه

وانما كانت النفوس أمارة بالسوء لكونها مجبولة عَلَى حب الشهوات والاسترسال مع عواصف الاهواء والحرص والطمع وحس الانتقام والاعتماد عَلَى القوة ومجاراة مقتضيات الاحوال الملائمة للمنفعة الخاصة ونحو ذلك فلا بد اذن للبشر من الاذعان الى شريعة سماوية تكبح جماح النفوس عن غيها وتجمع شتات الآراء المتفاوتة بتفاوت العقول ينضوي الناس تحت لوائها ويتفيئون ظلها ليفقه المرء ماله وما عليه تجاه الخالق والمخلوقين حتى يتم التعاون الضروري لبقاء نوع الانسان لانه مدني بالطبع مضطر الى التعامل المتبادل فلا يستطيع ان يستقل عَلَى الانفراد بالقيام بأود حاجياته الضرورية دون مشاركة غيره ومبادلته فلولا شريعة ينقاد اليها الرفيع والوضيع والقوي والضعيف لاشرأبت الانفس وطمحت الاعين الى ما عند غيرها من الاعراض والاموال وحصل التواثب والتهارج وتقوضت دعائم العمران وكان الحيوان انعم عيشاً من الانسان

اما محور دائرة الشريعة التي تدور عليه فهو سعـادة البشر في الدارين واما قطباها فاحدهما ما كان عائداً الى الخالق جل شأنه وثانيهما ما كان عائد الى المخلوق فالذي يعود الى الخالق توحيـده وعبادته وهما ايضاً باعتبار الاثر عائدان الى سعادة المخلوق لأن التوحيد يطهر العقول من سخافات الشرك والوثنية ويحرر النفوس من الاستكانة لغير هيبة الالوهية وعبادته تعالى تلطف شره النفوس وتنهاها عن الفحشاء والمنكر فتوحيده تعالى والاخبات له يستدعيان اتباع كل فضيلة واجتناب كل رذيلة وهما الاساس الذي يبنى عليه تحلي النفس بمكارم الاخلاق ومعرفة ما لها وما عليها تجاه عالم الحياة الدنيا فاندمج الثـاني وهو ما يعود الى الخلق بالاول وهو ما يعود الى الخالق . واما اقطارها فهي القواعد الشرعية الاصلية التي تتفرع عنها الاحكام الفرعية واما محيطهـا فهو المجتمع الانساني الذي تنبسط عليه اشعتها فيستضيء بانوارها

اما الذي ألصقه المبتدعون بالشريعة من البدع والحشو مما لم يثبت بقطعي الثبوت والدلالة او قطعي الثبوت ظني الدلالة او قطعي الدلالة ظني الثبوت او ظني الدلالة والثبوت او بالاجماع او القياس الشرعيين او ما ألحق بهما من الادلة الشرعية فهو اشبه

بكسوف الشمس فان حيلولة هذه البدع تحجب بصائر من يقف عندها عن انوار الشريعة في الجملة كما تحجب اشعة الشمس عن ابصار اهل الجهة المقابلة للجرم الذي حال بينها و بين الشمس

وعلى قدر اتساع دائرة الشريعة وانبساط اشعتها يكون اتساع وظيفة علماء الدين وامتداد شيوعها بين افراد الهيئة الاجتماعية وهي تنقسم الى ثلاثة اقسام داخلية وخارجية ووظيفة مشتركة بينهما بمعنى ان اثرها يضطر اليه في الخارج كما يضطر اليه في الداخل فالوظيفة الداخلية الارشاد والتهذيب والتعليم فالقسمان الاولان مما يعود الى العامة بارشادهم الى الاعتقاد الصحيح بالله تعالى ورسله واتباع احكامه الشرعية كما يقتضيه خطاب الله تعالى المتعلق بافعال المكلفين بالاقتضاء او التخيير من الوجوب والندب والحرمة والكراهة والاباحة . او بالوضع من الصحة والفساد والبطلان . وتهذيبهم بمداواة النفوس بالاخلاق الفاضلة للتخلي عن الرذيلة والتحلي بالفضيلة وهو المعني بفقه القلوب الذي يبنى عليه فقهُ الجوارح وقد رفع الله من شأنه بقدر ما وضعه الناس فاضاعوه واهملوه على حين انه صلى الله عليه وسلم يقول (بعثت لأتمم مكارم الاخلاق)

اما القسم الثالث وهو التعليم المتعلق بالخاصة فينقسم الى ثلاثة اقسام . اولها تعليم العقائد بالبراهين العلمية سواء كانت عقلية او طبيعية اورياضية . والثاني تلقين الاحكام الفرعية مع القواعد الكلية المستنبطة من الادلة الشرعية وتطبيقها على الاصول مع العلم باسرارها وحكمة تشريعها للتوصل الى علم السياسة الشرعية وهو مراعاة المصلحة التي بنيت عليها احكام الشريعة . والثالث تعليم فلسفة الاخلاق وهو علم مداواة النفوس وتشخيص عللها وامراضها واكتشاف مكايدها وكيف يؤتى عَلَى الانسان من قبلها ومن اين يؤتى ووصف العلاج الناجع لتقلص هذه الامراض واستئصال عللها واسبابها وجراثيمها . ولا يخفى ان ذلك جميعه يقتضي تعلم علوم شتى لها ارتباط بما سبق اما عَلَى سبيل الاستلزام او الاستمداد فتكون الوظيفة شاملة جميع العلوم المتعلقة بهذا الشأن سواء كانت مقاصد او وسائل . واما الوظيفة الخارجية فهي الدفاع عن حوزة الدين بدفع الشبه المندفعة من سيل العلم المادي الجارف بتأييده بالنظريات العلمية وتطبيق العلم عَلَى الدين نظرية نظرية وقضية قضية

اما الوظيفة المشتركة فهي تحتوي عَلَى امرين . الاول فهم

روح الشريعة وحكمتها واسرارها ومراميها . وتصويرها بيضاء نقية كما تركنا عليها الشارع صلى الله عليه وسلم وهذا يتوقف على تنقيحها مما ألصق بها من الحشو والبدع وجميع مالم يثبت به نقل ولا يقبله عقل .

الثاني السعي وراء سير الدين مع العلم والعمران والرقي الاجتماعي واقامة الادلة الشرعية على ان الدين لاينافي العلوم الكونية على اختلاف انواعها وانها لاتقضي عليه بل تزيده وهو لايحظرها بل يستوجبها وانه لاحياة للمتدين الا بهذه العلوم التي تسير مع الدين جنباً الى جنب كما انه لاينافي نوعاً من انواع الرقي المدني الحديث مالم يصادم نصوص الشريعة مع مقدرة القائم بهذه الوظيفة على اظهار حكمة هذا الحظر وتقريبها من العقول بحسن التعليل واصابة الدليل لانه تعالى حكيم لايحظر شيئاً مالم تكن مضرته اكبر من نفعه لكنها قد تكون خفية لاتظهر الا بعد التحليل والتدقيق

وبما تقدم يتقلص جمود اعداء التجدد ويتضح للاغيار ان علة انحطاط المسلمين ليست منبعثة عن دينهم بل ناشئة عن انحرافهم عن منهج دينهم القويم وتهدئ ثائرة الكفاح المستمر

وطيده بين رجال الدين المحتفظين بابقاء القديم على قدمه الذين اقتصروا على شعائر الدين دون لبابه و بتعبير آخر الذين استغنوا عن الدر بالصدف و بين رجال العلم المجددين المارقين من الدين فاولئك يزعمون ان جميع المشاريع التي تقتضيها روح الزمن سواء كانت علمية او عمرانية او اجتماعية مخالفة للدين . وهؤلاء يزعمون ان الدين عقبة كأداء او حجر عثرة في سبيل تقدم البشر ورقيه وانه لاسعادة للبشر الا بالانسلاخ عنه وكلا الفريقين افتأت على الدين ماهو براء منه . فالفريق الاول وقفوا عند ظواهره مع جهالتهم بجميع العلوم الكونية والمعلومات المدنية . والفريق الثاني لم يعرفوا منه سوى مايتجلى امامهم من آثار البدع الملصقة به التي من شأنها الحيلولة بين انواره والبصائر والجمود على الموجود على انهم لم يتضلعوا بالعلوم الكونية بل تذوقوا قليلاً منها واعجب غلاتهم بزينة الغرب اعجاباً سحرهم وصرف نظرهم عن كل ماله تعلق بما وراء الطبيعة . وارباب الحنكة منهم يزعمون ان الدين امر وجداني يتعلق بين العبد ومعبوده ولا تعلق له بالمجتمع سوى احترام الشعائر حرمة للشعور

و بهذا يتضح ان سبب انحراف المسلمين عن منهج دينهم القويم

الذي اقتضى انحطاطهم وعدم مباراتهم الامم الراقية الذي استوجب تمزيق جامعتهم وفقدان استقلالهم في مشارق الارض ومغاربها هو تعطيل اغلب هذه الوظائف الآنفة لذكر المبعث عن ندرة علماء الدين الذين من شأنهم القدرة عَلى القيام باعباء هذه الوظائف كل عَلى حسب اختصاصه

ولا ريب ان ضرورة البشر الى التدين واتساع وظيفة علماء الدين يستلزمان طبعاً عظمة علماء الدين ورفعة مكانتهم في الهيئة الاجتماعية واعني بهم امثال فقيدنا الذي مهدت هـذه المقدمة المسهبة لأصل بها الى اثبات عظمته وذلك بسرد سيرته التي تبرهن عَلى انه كان رحمه الله تعالى قائمـاً باعباء اغلب هذه الوظائف السالفة ومنها اتطرق الى شذرة من اخلاقه واحواله لاجمع بين فواضله وفضائله مبتدءاً باعماله وآثاره لانهـا من باب الفواضل المتعدية وهي اشرف من الفضائل القاصرة فالفاضل غير موءذ والمتفضل يزيد عليه بانه نافع . وعالم بدون اثر او بأثر لاينفع البشر كشجر بدون ثمر او غمام بلا مطر . واحب عباد الله اليه انفعهم لعباده . عَلى ان دلالة الاثر عَلى الموءثر اقطع في الحجة وادل عَلى المرام . من دلالة الوصف باللفظ والكلام . لان الأولى

برهان والثانية بيان . وان من البيان لسحراً . والسحر غشاوة وأيهام ربما يفضي بسائق الخلابة الى الاقناع . والدليل بالبرهان ألزام يؤدي ضرورة الى الاذعان والافحام . لهذا نكبت عن مسلك ارباب الطبقات الذين أوغلوا في الغلو والاغراق وافرطوا في الاطراء المحظور شرعاً المجتوى عقلاً لانه مضيعة للحقائق مدعاة الى التابيس خصوصاً اذا كانت العبارة متحدة على نسق واحد بنظم سلك الدرر في وصف نحو اعيان القرن الثاني عشر مثلاً فان كل رجل من رجال الطبقة يوصف بانه (علامة المعقول والمنقول والبحر الزاخر في الفروع والاصول . وحيد زمانه وفريد عصره وأوانه شامة الشام . وغرة الليالي والايام الخ) فان المطلع لايتمكن من التفرقة بين الفاضل والمفضول والعالم والاعلم من رجال هذه الطبقة لان جميعهم علامات المعقول والمنقول ونوادر الزمان وبحور العلم والعرفان . لاسيما اذا جاوز الغلو الحد وغلى واشتد . وقذف بزبد الكذب الصراح كقول من يقول (لم يسبقه سابق ولن يلحقه لاحق) او (ماسمح بمثله الزمان ولن يسمح) وما شاكل ذلك من التهويل والتضليل اللذين كان فقيدنا ابعد الناس عنهما كما يتجلى ذلك من سيرته واليك الاعراب عنها مجردة عن

الاغراق والاطراء وحسبنا ما يستنتجه القاريء من دلائل عظمة الفقيد من محصل مضمونها

(اعماله وآثاره)

لا يخفى ان من القضايا البديهية التي لا تحتاج الى دليل وبرهان ان مفتاح سعادة الامم وبريد فلاحها وسلسبيل حياتها ومنطاد رقيها هو العلم ولا سبيل الى النهضة العلمية وانتشار المعارف ما دامت الامية ضاربة اطنابها فبذل الفقيد جهد المستطاع في اصلاح الكتاتيب الابتدائية والمدارس الرشدية ابان نضارة شبابه حينما كان مفتشاً عَلَى المدارس الاميرية بعد ان تولى التعليم في المدرسة الظاهرية فلم يدع وسيلة لاصلاح اساليب التعليم التي كانت عَلَى غاية السقم وفي اسفل دركات الانحطاط الا وتذرع بها . فكان يراقب الاساتذه والتلامذة ويتعهدهم بالنصائح والارشاد . وصنف كثيراً من الرسائل الناجعة النافعة للمبتدئين المختلفة باختلاف طبقاتهم عَلَى اسلوب مبتكر لم يكن معهوداً في ذلك الوقت سهل التناول خالٍ من الحشو والتعقيد اذكر من تلك الفرائد (مدخل الطلاب الى فن الحساب) (قصص الانبياء)

(الفوائد الجسام في معرفة خواص الاجسام) في الحكمة الطبيعية (مد الراحة لاخذ المساحة) جمع بهما شتات المسائل المبعثرة في الاسفار والتقطها التقاط اللآلئ من البحار فطرح الصدف وانتقى الدرر ونظم عقدها بسلك السؤال والجواب . ليسهل تناولها على اذهان الطلاب . وانفذ ضمن هاتين الفريدتين فوائد شتى ينتفع بها من هو ارقى طبقة من المبتدئين وجعلها حاشية على حدة . ومنها (الجواهر الكلامية في العقيدة الاسلامية) وهي سهلة المأخذ مرتبة على طريقة السؤال والجواب ايضاً حوت تسعة عشر سؤالاً وكان كلما نفدت واعاد طبعها يدخل عليها شيئاً من التحوير والاصلاح ثم اضاف اليها فيما بعد من الزمن (الجوهرة الوسطى) وتوجها بهذه الفقرة (يطالعها المعلم ابتداءً والمتعلم انتهاءً) كذلك نهج بتأليفها نهجاً بديعاً اتى بمقدمة تصور سير العقل في ثلاثة مواقف وانتقاله في عالم التفكر الفطري بالتسلسل من الموقف الاول الى الثاني واذا انتهى من الثالث اجتاز مبدأ الطريق في معرفة الله تعالى فاذا سلكه ثانياً ظهر له من الحقائق اكثر مما ظهر من قبل فألفيت انه نهج بهذه المقدمة نهجاً يوشك ان يشابه نهج

رسالة حي (١) بن يقظان وابسال ثم اتى بعد هذه المقدمة ببابين وخاتمة الاول في النبوة وما يتعلق بها والثاني فيما يتعلق بالعقيدة الاسلامية والخاتمة تشتمل عَلَى فوائد شتى ومنها (رسالة في

(١) هي رسالة في اسرار الحكمة المشرقية استخلصها من الفاظ الرئيس ابن سينا ابو جعفر بن طفيل الاشبيلي وهي تصور ان انسانًا يدعى حي بن يقظان نشأ في جزيرة خالية من بني الانسان وحينما ترعرع وبلغ سن التمييز طفق بفطرته يهتدي الى اختراع حاجياته البشرية وان اضطراره الى حاجياته الضرورية اضطره الى التفكر وانعام النظر بالارض وما عليها من نبات وحيوان ومنه انتقل الى العالم العلوي حتى ارتقى فكره فادرك ان هذه العوالم لابد لها من صانع وانه لابد ان يكون واحداً وقديمًا ومخالفًا للحوادث ولا يجوز فناؤه وهلم جرا . حتى عرف جميع ما يجب له تعالى وما يجوز وما يستحيل عليه بهداية الفطرة والعقل الغريزي . وقد اجتاز هذه المراحل في سبعة ادوار من سني حياته حتى صار عمره خمسين عامًا صرفها في التفكر بالكون واسراره حتى وصل الى معرفة مكونه وخالقه وحينئذ اتفق له صحبة ابسال الوافد عليه من جزيرة آهلة بالبشر فارشده الى النبوات والشرائع لان العقل وحده لا يستقل بجميع ما جاءتا به من التكاليف سواء كانت من قبيل الاصول او الفروع وصفوة القول ان اسلوب هذه الرسالة بديع جدا في اثبات واجب الوجود جل شأنه بالعقل والفطرة وقد ارشدني استاذنا الفقيد ايام الدراسة الى هذه الرسالة وحضني عَلَى الاطلاع عليها واخبرني انه نصح للمعلم جبر ضومط استاذ الادبيات العربية في المدرسة الكلية الاميركية السورية ان يطلع عليها . اه مؤلف

العروض تزيل مافيه من الخفاء والغموض) رتبها عَلَى مقدمة وار بعة ابواب وخاتمة حوت كثيراً من الفوائد الغزيرة وهي ايضاً قريبة المأخذ واضحة المنهج رسم بها الجداول في انواع الزحاف والعلل والقوافي ليسهل فهمها وضبطها وقد تبع في بيان البحور طريقة صاحب الاندلسية لانها اقرب نوالاً وذلك انه نظم لكل بحر بيتاً من ضربه الاول وجعل اول كلمة منه تشعر باسمه . ورسم الدوائر وذيل الرسالة بجدول اخترعـــه من بنات افكاره يستخرج منه ابيات من ابحر شتى وقد وسمه بشطرنج الشعراء لانه مرتب عَلَى قدر منازل الشطرنج فاذا قرئ على المعتاد خرج منه ثمانية ابيات لامية من بحر الطويل . واذا قرأت الكلمات التي في المنزل الاول من اعلَى الى اسفل خرج بيت من بحر المتقارب واذا قرأت كل كلمة منه مع التي تحاذيها بالورب متحركة حركة فيل الشطرنج الى ان يحصل آخر الشطر ثم تبتدئ من الكلمة التي تليه كذلك الى ان يتم تحصل ثمانية ابيات لامية من بحر الطويل ايضاً فاذا ابتدأت من الكلمة الاولى خرج قوله كذا واذا ابتدأت من الكلمة الاخيرة خرج قوله كذا . واذا قرأت كلمات المنزل الثاني من اعلَى الى اسفل خرج بيتان من بحر الهزج . واذا قرأت

منه كلمتين وملت يمنة او يسرة كالفرس وقرأت مافيه خرج بيتان من بحر الوافر . واذا قرأت كلمات المنزل عَلَى هذا النسق فان ملت يمنة خرج بيتان من بحر المديد . وان ملت يسرة خرج بيتان من الضرب الثالث من بحر الرمل وهلم جرا . وقد ذيلها ايضاً برسالة عَلَى حدة سماها (اتمام الانس بعروض الفرس) وهي موجزة ذات فوائد بديعة . وله رسائل عديدة في الادب والنحو والبيان والبديع والالغاز والخطوط ورسم الف باء مما لا يحضرني تعدادها واغلبها عَلَى حساب الدور الاول من ادوار حياته وهو دور الفتوة والشباب وكلها من احسن ما كتب لنفع الاطفال والمبتدئين لانها كالاسس التي تبنى عليها قواعد العلم وترتفع قوائمه

انتقاد حساده

وكان ارباب الآراء السخيفة من حساده يعيبونه بهذه الرسائل قائلين عَلَى سبيل التنكيت والتبكيت (ماهذه المؤلفات الصغيرة الاصبرة صبيان الكتاتيب . اين المجلدات الضخمة واين الشروح والحواشي ؟) وفاتهم ان التعليم اذا لم يبن على اساس متين اتى علم المتعلم ناقصاً لايوثق به ولا بعلمه وان اسلوب هذه الرسائل لم يكن وقتئذ معهوداً فلا ريب انها كانت حجر الزاوية

في نهضة المعارف في الربوع السورية في اواخر القرن الثالث عشر واوائل الرابع عشر الهجريين .

على ان هذه الحواشي التي ينوهون بقدرها مازادت العلم الا نقصاً وتقهقراً الى ما وراء لحيلولتها بين ذهن المتعلم القاصر الفهم وبين قواعد العلم السمحاء .

وانت ترى ان اكثر اسفار المتأخرين ومجاميعهم الضخمة خالية من دواعي التأليف لانه لايسوغ لاحد كما نقل ابن حزم ان يؤلف تأليفاً الا في احد اقسام مخصوصة ولا يمكن التأليف في غيرها - وهي اما ان يؤلف في شيء ماسبق اليه يخترعه . او في شيء ناقص يتممه . او في شيء غامض يشرحه . اوشيء مختلط يرتبه . او شيء اخطأ فيه غيره فيصلحه . او شيء طويل يختصره بدون ان يخل بشيء من معانيه . او شيء فيه حشو وتكرار وزوائد فينقحه ويهذبه ليقرب تناوله . وذلك صيانة للنفس من الاتيان بالعبث وضناً بالوقت من ان يضيع سدى

اضاعة الوقت بالمؤلفات الفارغة

ترى بعض المؤلفين مثلاً يتناولون كتاباً قد شرحه من سلفهم شروحاً عديدة على اساليب مختلفة فيعيدون شرحه بنفس الفاظ

الشراح السالفين بدون ادخال اصلاح او تجديد او اختراع في الاسلوب . بل جميع ما يأتون به تحصيل ما حصل في الشروح السالفة فيزيدون في طين تكاثر الشروح بلة عَلَى ذهن الطالب كما تكاثرت الظباء عَلى خراش فما يدري الطالب اي شرح ينتقيه كما لم يدر خراش مايصيد

واني انتحل المعذرة لامثال هؤلاء لان روح زمانهم اقتضت ذلك ولكل زمان روح جديدة واما اليوم فلا عذر ولا اعتذار خصوصاً اذا كان المؤلف ينهج في تأليفه عَلَى رأي القائل . خذ شيئاً من هناك وشيئاً من هنا وقل المؤلف انا . فكم من مؤلفات ورسائل وشذرات مصنفة في موضوع من الموضوعات لو خرجناها لوجدنا كل جملة او نتفة مقتبسة من كتاب لان مؤلفيها لا يعرفون بديهيات العلم المؤلف به فضلاً عن عويصاته فيلفقون جملاً لا يفقهون معناها ومغزاها ولا يعرفون مايستنبط من منطوقها وفحواها . ويحشدون بعضها الى بعض ثم يبرزونها في قالب كتاب مصنف وعلى فرض انهم يريدون ان يبحثوا بحثاً او يبدوا رأياً نرى عبارته ركيكة منحطة عن تلك الجمل الملفقة ونرى رأيه على الاغلب مخالفاً للصواب واذا استفسرت منه عن معنى عبارة

وردت في كتابه او سألته عن قاعدة من قواعد العلم الذي صنف به تراه لايحير جواباً . فاي فضيلة تعد اذن او اي مزية تذكر فتشكر لمن كانت مؤلفاته نقولاً في نقول . ويقول ولا يدري معنى مايقول سوى عنونة اسمه عَلَى ظاهر الكتاب مقروناً بالقاب التعظيم والتفخيم . واعظم من ذلك تبعة من يعين امثال هؤلاء عَلَى دجلهم بتقريظ الكتاب باطراء فاحش واماديح ما انزل الله بها من سلطان .

وبهذه المناسبة اذكر ان رجلاً ألف رسالة في علم الوضع ورفعها الى ملاذ سيدي وسندي علامة عصره وقطره شيخ مشايخ الشام عَلَى الاطلاق استاذي المغفور له الشيخ بكري العطار قدس الله روحه راجياً تقريظها فارجئه ريثما يطلع عليها وحينما دقق بها وجد عبارتها عبارة علماء اعلام . كالسعد والسيد والعصام . فاعجب بها وعجب من مؤلفها . وبعد ايام اتاه المؤلف ليقف عَلَى مصير الاطلاع عليها حتى يحظى بتقريظها من لدن علامة دمشق فطفق سيدي الاستاذ برأى كاتب هذه السطور يسأله بالبشر والللين عن قواعد علم الوضع المندرجة برسالته ليختبره هل كتب عن علم ام نسخ ام سلخ ام مسخ فوجده من النساخ المجيدين النسخ مع المسخ

لانه لم يقدر ان ينبس ببنت شفة او يجيب عن مسألة واحدة فتضائل وانصرف متأبطاً رسالته يتعثر باذيال الخجل لا يرى مواطئ اقدامه . وبعد انصرافه قال لي سيدي لو اجاب قليلاً بما يعرب عن علمه . ارشده الله . لكتبت قليلاً عَلَى قدر استحقاقه ودفعته بالتي هي احسن دفعاً لصدع خاطره وتنشيطاً له ولكن تقريظ كتب النساخ يعتبر تغريراً لا تنشيطاً ولا حول ولا . ومن رأي سيدي العطار - عطر الله ثراه - انه لا فائدة اليوم من التصنيف بهذه الموضوعات التي ملأت كتبها الخافقين الا اذا نهج الخالف نهجاً مبتكراً عَلَى خلاف نهج السالف لهذا لم يعن رحمه الله بالتأليف بل كان صارفاً اوقاته للتعليم فكان عاكفاً صباح مساء عَلَى التدريس منذ نشأته الى وفاته حتى تخرج به من طلاب العلوم الدينية ووسائلها من العلوم العقلية وعلوم العربية ما لا يسعهم الاحصاء والاستقصاء وكأن لسان حاله يقول ما (١) انشده لنفسه السيد محمد فيضي الزهاوي البغدادي رحمه الله

عوق تدريسي عن التأليف ... فلكن لست منه متأسف

(١) أنشدني هذين البيتين الاستاذ العلامة الجليل الشيخ محمد سعيد النقشبندي البغدادي الشهير وهو حينئذ نزيل دمشق اهـ مؤلف

من تلاميذي ألفت كتاباً   كل سطر منه في العلم مؤلف

اما رسائل فقيدنا الجزائري فانها غير خارجة عن دائرة دواعي التأليف السالفة النقل عن ابن حزم .

❊ تشبث الفقيد بجمع شتات الكتب المبعثرة ❊

رأى رحمه الله ان الكتب النفيسة المخطوطة الموقوفة على طلاب العلوم مبعثرة في مكتبات المدارس وان يد النهب والاختلاس تلعب بها من حين الى آخر نخشي اذا دام الحال على هذا المنوال ان تفقد باجمعها و يحرم الناس من فوائدها فتشبث مع اولياء الامور بتوحيد هذه المكتبات وجعلها مكتبة واحدة صيانة للبقية الباقية فلقي اقتراحه قبولاً لدى والي سورية مدحت باشا الوزير العثماني الشهير بالرغم عن مقاومة المقاومين فاوعزت الحكومة بنقلها من المدارس العلمية الدينية امثال (العمرية والنورية والسميساطية والسليمانية والاسماعيلية والعبدلية عبد الله باشا ، وغيرها) الى القاعة التي اتخذت لها وهي مقبرة الملك الظاهر وجعلت الحكومة لها ادارة خاصة ونصبت القيمين عليها وسنت قانوناً خاصاً يضمن صيانتها

ولم يقف عند هذا الحد بل كان يتعهدها و يرتاد لها الكتب

النفيسة بنصحه لاهل الخير لاسيما في عهد ولاية صديقه وتلميذه الوزير عبد الروؤف باشا احد ولاة سورية في عهد السلطنة العثمانية احسن الله اليهما . ثم عهدت اليه الحكومة بوظيفة التفتيش عَلَى خزائن كتب ولاية سورية ولواء القدس . وهي من وظائفه الطبيعية لانه سواء عليه عهدت الحكومة اليه ام لم تعهد فانه لا يذر التفتيش ولا يألو جهداً في خدمة العلم ومتعلقاته لكن صار له كلمة نافذة في ادارة شوؤنها بموجب الوظيفة فاضاف الى انتظامها السابق زيادة انتظام كما ان بسعيه وتشويقه تأسس غير مكتبة في كثير من مدن القطر السوري كالمكتبة الخالدية في القدس وغيرها .

وكثيراً ما كان يحض اهل كل بلدة يغشاها من البلاد السورية عَلَى تأسيس المدارس والمكتبات . اذكر اني لقيته بمدينة حماه حينما كان قادماً من مصر عن طريق طرابلس قبيل الحرب العامة بعد طول غيبته فلم يكن له حديث الا استنهاض همة الحكومة وسراة حماه وافاضلها لانشاء مكتبة . وكان يثير حميتهم بالثناء عَلَى اهل طرابلس لانهم لبوا ندائه ولم يتقاعسوا عن اداء هذا الواجب فينبغي ان لا يكونوا اقل نشاطاً منهم كما هو شأنه في الدعاية فانه يثير عواطف اقوام بالثناء عَلَى اقوام آخرين ليتأسوا

بهم . وكذلك عرج الى حمص واستنهض همة اهلها للغرض نفسه بالاسلوب نفسه . واساليبه في الدعاية عجيبة وثباته عَلَى نشر مبادئه وافكاره اعجب كما سيتجلى من مساق سيرته المسلسل .

(استثارته دفائن اللغة العربية)

لامراء انه لا حياة لامة الا برقيها المادي ولا سبيل اليه الا بالرقي الادبي وهو لا يكون الا باغة تلك الامة انكفلها بابراز مكنونات الضمائر لان اللسان دليل الفؤاد وعَلَى قدر اتساع اللغة ووفرة موادها وخصائصها يكون اتساع ادبياتها . وهل تبلغ امة مناها بغير ادبياتها . وان هذه اللغة العربية الشريفة هي سيدة لغات العالم لانها اغنى الجميع فكما ان الله تعالى اصطفاها ان تكون لغة كتابه ورسوله وشريعته المحمدية اختصها بخصائص ومزايا واسرار واساليب لم توجد في غيرها من اللغات . فالعرب مضطرون الى دراستها واحياء دارسها والتضلع بها بناءً على وجهتين خطيرتي الشأن . احداهما طبيعية وهي انه لاحياة لامة الا بحياة لغتها كما اسلفنا لاسيما وان هذه اللغة ذات مزايا فائقة . وبهذه الوجهة يشترك كل عربي سواء كان من المسلمين او غيرهم لهذا عني كثير من ادباء المسيحيين في خدمتها والعمل لنهضتها . والوجهة

الثانية دينية . وبهذه الوجهة يشترك جميع المسلمين . من عرب ومن عجم للتوصل الى فهم الكتاب والسنة وجميع قواعد الشريعة الاسلامية .

وقد بذل القدماء من سلفنا جهدهم في خدمتها لاسيما الاعاجم حتى ان اغلب أئمة اللغة العربية الذين آزروها واخترعوا بعض فنونها ووقفوا عَلَى اسرارها واساليبها هم من الاعاجم المستعربين لاسباب مختلفة يعلمها علماء التاريخ .

وقد كان لها من الشأن الخطير والرفعة ما كان في عهد شباب دولة الاسلام فوسعت جميع المصطلحات العلمية والفلسفية وقبلت الالفاظ الادارية كما وسعت المصطلحات الشرعية حين بزوغ الاسلام وذلك اما بالنقل تجوز او استعارة . او بالاشتقاق او القلب او الابدال او النحت او التعريب . وما ذلك الا لغزارة مادتها الجوهرية ووفرة خصائصها العرضية . ثم اخذت في الانحطاط حينما دالت الايام وتقوضت عروش دول العرب حتى صارت مسرحاً للالفاظ الدخيلة والعامية والتراكيب السقيمة والترسل الركيك والسجع السمج والشعر السخيف وسرت لوثة العجمة بها سريان الجراثيم الضارة في شرايين الجسم السليم وجاءت - كما قال

حافظ ابراهيم -كتوب ضم سبعين رقعة مختلفة الاشكال والالوان .

وكان قبل نهضتها الحديثة جل اشتغال المنسوبين اليها المحسوبين من خدامها مزاولة النحو والصرف وقليل من البيان . وكانت وجهتهم مصروفة الى زيادات المتأخرين ار باب الحواشي والتعليقات من كثرة التعليل والفنقلات اكثر من انصرافها الى نفس قواعد العلم واستثمارها بدليل ان من يحسن منهم فهم حواشي المختصر او المطول او الاطوال في المعاني والبيان لا يستطيع الترسل لو كلف بانشاء رسالة قصيرة

والمتأدبون منهم كان يحذو ناثرهم حذو ريحانة الخفاجي وفاكهة ابن عربشاه وقلائد الفتح بن خاقان . ويقرض شاعرهم نحو قرض ابن البنية وابن مليك وابن معتوق مما لا يعد اليوم شيئاً مذكوراً في جانب نثر نهج البلاغة و بلاغات النساء وكتابة عبد الحميد والجاحظ وابن المقفع وابن خلدون . ونظم ابي تمام والبحتري وابن الرومي وابي الطيب والشريف الرضي ونحو ذلك من ادبيات المتقدمين المنثورة والمنظومة

على ان المقلد المتأخر اذا لم يكن بمنزلة المقلد المتقدم في المقدرة

العامية لايستطيع طبعاً ان يضارعه بالاحتذاء . وان هؤلاء المتأدبين لم يقدر لهم ان يكونوا من العلم والادب بمنزلة الفتح ابن خاقان او الشهاب الخفاجي او ابن معتوق ونحوهم ليكون نثرهم او نظمهم كنثر هؤلاء ونظمهم

واذا كان ادباؤنا صرفوا وجهتهم عن انشاء امثال هؤلاء الافاضل مع تقدير ادبهم وعلمهم والاعتراف بفضلهم فبطريق الاولى ان لايكتالوا بكيل من يسرق الفاظ هؤلاء ويفرط عقد تراكيبهم ويركبها بصورة مشوهة بل انهم يعدون هذا من هراء القول نظماً كان او نثراً .

لهذا كان الفقيد ينتقد ارباب هذا الاسلوب المنبعث عن ذلك الجمود ويرشد الناس الى نفائس الاعلاق من كتب المتقدمين وامهات اللغة العربية التي كانت كنزاً دفيناً ندر من سمع بها فضلاً عمن اطلع عليها وعرف قدرها مثل اطلاعه ومعرفته . فكان يبذل جهده لاستثارة هذه الدفائن والسعي وراء طبعها ونشرها ومزاولتها . فكم من كتاب عرفه الناس وتمتعوا بفوائده وبرز الى عالم الطباعة بدلالته بعد ان كان نكرة لاتعرف . فلا ريب انه من اركان النهضة العربية الحديثة الذين عملوا لرقيها عمل من طب

لمن حب من علماء مصر وسورية وتونس او علماء المشرقيات شكر الله حسن صنيعهم ·

﴿ عنايته باحياء التاريخ ونبش الآثار ﴾

لا ريب ان التاريخ باجماع اهل البصيرة والنظر من اجل ما يعنى به ارباب العقول · وافضل ما يهتدي به المجهول · لانه المنظار الذي تكتشف به الحقائق باجلى بيان كما تظهر بالمجهر الحقائق الخفية ظهور روئية وعيان · فهو مرآة العصور الغابرة · ومرقاة الاجيال الحاضرة · ميزان عقول الامم وكشاف الظلم · صفوة الاعتبار · ومحك الاختبار لان الخلف يتخذ من تجارب السلف نبراساً يهتدي بانواره الى انتقاء النافع واتباعه · واتقاء الضار واجتنابه · فهو على اختلاف شعبه وتباين انواعه كالسير والوقائع والطبقات على تباين مسالك اربابها حلقة سلسلة الاتصال التي تربط الحديث بالقديم فلا يستغنى عنه بجميع انواعه من قديم ووسط وحديث · فالملوك والوزراء والقواد والساسة والقضاة والاداريون والعلماء والحكماء والمرشدون بحاجة اليه كل منهم يقتبس منه ما يلائم مسلكه ومشربه · حتى ان عامة الناس لا غنى لهم عنه لما يجدونه بين طياته من تهذيب الاخلاق · وتثقيف

العقول . وما يورث نفوذ النظر . وسعة المدارك . عدا عن ترويح النفس وتسريح الطرف في حدائقه الغناء ورياضه الانيقة . ولو لم يكن ذا شأن خطير لما اتى القرآن الحكيم طافحاً بقصص الامم الغابرة لتكون عبرة لمن اعتبر . وموعظة وذكرى لمن تدبر وانعم النظر . وكذلك السنة السنية فانه صلى الله عليه وسلم كان يقص على اصحابه كما قص الله تعالى عليه احسن القصص . وكان فيما اوصي به ابو حيان بنيه عليكم بمطالعة التواريخ فانها تلقح عقلاً جديداً . وكان فيما اوصاني به استاذنا حكيم الاسلام الشيخ محمد عبده عليك بالاطلاع على التاريخ قبل الاسلام وبعده واثناء البعثة حتى يتبين لك سر هذا الانقلاب العجيب بهذه السرعة الفائقة وانه سر آلهي خارج عن مقدور البشر . ونقل عنه صاحب المنار الأغر انه قال (انا لا اعقل كيف يمكن لاحد ان يفسر قوله تعالى « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين الآية وهو لا يعرف احوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها وهل كانت نافعة ام ضارة وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم)

فانت ترى ان هذه المعرفة نتيجة معرفة التاريخ اذ لا تعلم

نواميس النشيء الاجتماعي واحوال البشر الا به . واذا كانت الامة جاهلة علم احوال البشر وتكونهم الاجتماعي تكون عضواً اشل في جثمان المجتمع البشري .

وصفوة القول ان التاريخ هو الركن الركين في بناء الهيئة الاجتماعية فلا يمكن الاستغناء عنه بجميع انواعه بوجه من الوجوه لاسيما تاريخ الاسلام والعرب بالنسبة الى المسلمين خصوصاً العرب منهم ليعلموا كيف اشرق ذلك النور الساطع من مطلع الحجاز بعد ان كان حالكاً بدياجي جهالة اهله فانار معظم القارتين القديمتين آسيا وافريقية وقسماً غير قليل من اوربا وكيف كان يسير به اهله تحت لواء العدل والاحسان . وكيف انتشر بسرعة لم يعهد لها نظير حتى امتد سلطانه في امد يسير من المشرق الى المغرب . وكيف كانت سيرة هؤلاء الفاتحين مع من فتحوا بلادهم . اذ حقنوا الدماء . وصانوا الاعراض والاموال . وحفظوا الذمة والولاء . واطلقوا لهم حرية دينهم . وكيف كان سير الخلفاء الراشدين بالرعية من العدل والانصاف واحقاق الحق وازهاق الباطل بعد ان اثقل عاتق الشعوب ظلم ملوكهم الغاشمين . وكيف كانت سيرة من بعدهم من خلفاء المسلمين في

احياء العلم والعناية بالعلماء والحكماء وتوقيرهم والتسامح معهم عَلَى اختلاف مللهم ونحلهم فان من يعلم هذا بالتحليل والتدقيق يثبت لديه ان التمدن الحديث لم يبين الا عَلَى دعائم التمدن الاسلامي كما يتضح له اسباب تقهقر المسلمين وانحطاطهم منذ اجيال

وخليق بامة تريد ان تحيى حياة جديدة ان تعرف تاريخ سالفها في دوري الرفعة والانحطاط لتعلم اسباب السؤدد والرفعة وعلل السقوط والانحطاط لان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ولن تجد لسنةِ الله تبديلاً . وان امة تجهل تاريخ الامم عامة وتاريخ نفسها خاصة لجديرة ان تخبط خبط عشواء في الليلة الظلماء .

من اجل هذا عني فقيدنا رحمهُ الله تعالى باحياء التاريخ وارشاد المسترشدين وغيرهم الى مزاولته ودراسته وانعام النظر به وبفلسفته والدلالة عَلَى كتبه المفيدة والسعي وراء نشرها وطبعها .

(الآثار)

اما الآثار فضرورة التنقيب عنها لاتخفى عَلَى اهل المدارك الثاقبة سواء كانت آثار الامم البائدة او آثار التمدن الاسلامي . فالاولى ينبغي التنقيب عنها للوقوف عَلَى مدنيةِ الامم وصناعاتها

للاقتباس والاحتذاء والوقوف على منزلتها من عالم الحضارة والتمدن والعمران اذ يحكم على الامم بآثارها . والثانية ينبغي بطريق الاولوية البحث عنها لنقتطف من ثمار اسلافنا ماينفعنا في سبيل نهضتنا المدنية ونبرهن بتلك الآثار للامم الغربيه صاحبة التمدن الحديث على اننا امة ذات تاريخ مجيد ومجد مؤثل كما وقف على ذلك علماء الاستشراق البحاثون وكتبوا المقالات الشائقة في حضارة العرب ومدنية الاسلام (هذه آثارنا تدل علينا)

اضف الى ذلك ما ينجم عنهُ من الاعتبار واحياء الشعور وإثارة الهمم للمباراة لان الناس حكويون بالطبع اي ميالون بطبيعتهم للمحاكاة والمشابهة والتقليد عريق بالآدميين كما قال ابن خلدون .

لهذا بذل الفقيد جهده في سبيل هذا الشأن وتعلم كثيراً من الخطوط القديمة كالكوفي والمشجر والعبراني وغيرهم ليتسنى له دراسة الآثار الدارسة ونبشها من عالم الدثور الى عالم الظهور .

سعيه وراء التوفيق

بين الدين والعلم والعمران

ان هذه الوظيفة اسامية من اجل الوظائف . واكبرها شأنا

واسماها قدراً . واشدها صعوبة . يتوعر على السالك نهجها . ويتعسر على الوالج بابها . لتوقفها على عدة امور خطيرة سواء كان مباشرة او استلزاماً . (اولها) فهم الدين كما انزل مع الوقوف على روحه واسراره . وفهمه يتوقف على فهم متن الشريعة ومعرفة طرق أسانيدها . اما فهم متنها فلا يتسنى الا بفهم اللغة التي انزلت الشريعة بلسانها وذلك بمعرفة جوهر الكلمة واشتقاقها وقلبها وابدالها وتصريفها واعلالها . واعرابها وبنائها وتركيبها . وحقيقتها ومجازها واسنادها وانواع الجمل وفصلها ووصلها واساليب الكلام ونحو ذلك من جميع خصائص اللغة واسرارها لتمكن معرفة اللفظ الخاص والظاهر والمفسر والصريح والمطلق من العام والخفي والمجمل والكناية والمقيد . ومعرفة الكلام الدال على المعنى بعبارته او اشارته او اقتضائه اومنطوقه او مفهومه . وغير ذلك كما هو مسطر في محله .

ولم يؤت من اتى ودخل عليه في فهم الشريعة اصولاً وفروعاً الا من ضعف ادراكه اللغة بخلاف الفقيد فانه كان من فطاحلها حتى كاد ان يحيط بها كما تشهد آثاره ويعترف له بذلك كل من عرفه وصحبه .

واما معرفة طرق الاسانيد فلاجل تمييز الخبر الصحيح من الموضوع . والحسن من الضعيف . والمتواتر من المشهور . والعزيز من الغريب . والمقبول من المردود . والمرفوع من الموقوف او المعلق او المقطوع . ونحو ذلك . وقد كان له بهذا الموضوع القدح المعلى كما يشهد له كتابه توجيه النظر الى اصول الاثر الذي اصدره في مصر سنة ١٣٢٨ هجرية وهو سفر جليل القدر جمع فيه زبدة ماجاء في كتب اصول الفقه واصول الحديث من القواعد والفوائد مع التحقيق والتدقيق باسلوب بديع مما يبرهن على سعة اطلاعه على علوم الشريعة الغراء .

ومن اجل فوائد هذا العلم معرفة ما ألصقه الوضاعون بهذه الشريعة السمحاء من البدع والحشو والزيادات والدسائس ترويجاً لبدعهم واهوائهم مما لا ينطبق على علم او يقبله عقل . وان لتنقيح الشريعة مما ألصق بها دخلاً كبيراً في تصويرها بيضاء نقية كما تركنا عليها صاحبها . وفي فهمها كما انزلت وسيرها مع العلم والعمران . ولا مجال هنا لبيان آفات البدع التي فتت في ساعد المجتمع الاسلامي حتى تقهقر وسقط في يده . وما نجم عنها من استهداف الاسلام لسهام النقد المفوقة من قبل ادعائه . ومروق

او ضلال كثير من ابنائه لانها شوشت عليهم مناظم اسباب الاهتداء .

لهذا جاهد الفقيد في مقاومةِ هذه الحشويات والزيادات جهاد الابطال في ساحات النزال . والحرب سجال الى ان يظهر الحق عَلَى الباطل والله مع الصابرين . وكان له مهارة فائقة في حروبه الادبية . فقد اتخذ لنزع هذه القشور عن لباب الشريعة الغراء اساليب عجيبة . ومن اعجبها انه كان ينسخ او يستنسخ كتب ابن تيمية او ابن القيم الجوزية او ابي شامة المقدسي وامثالهم ممن لهم اليد الطولى في مكافحةِ البدع ويبيعها بواسطة السماسرة في سوق الوارقين بثمن بخس ثم يذيع ان الكتاب الفلاني الذي هو من النفائس والمضنون به عَلَى غير اهله قد بيع بثمن بخس منذ يومين حتى يشتهر مؤملاً ان يقع في ايدي مناوئيه بالرأي فيطلعوا عليه ويهتدوا بنبراسه فيظفر رأيه برأيهم وينضووا تحت لوائه من حيث لايشعرون . ولو سلك غير هذا المسلك لأ خفق مسعاه لأن اغلب معاصريه كانوا ينفرون من كتب ابن تيمية ومن كان على شاكلته . ويصمون بالابتداع من يصرح باطرائها او الدعوة اليها لاسباب لامحل هنا لتفصيلها .

وبهذه المناسبة اذكر انه وصف لي يوماً رحمه الله كتاب ابن

تيمية الموسوم برفع الملام عن الأئمة الاعلام فاعجبت به ايما اعجاب ورجوت استاذاً لي من اجل علماء الاسلام ومن افضلهم اخلاقاً واطيبهم قلباً ان اتلو على مسامعه الشريفة هـذا الكتاب (كما تلوت قبلاً فيصل التفرقة لامامنا حجـة الاسلام الغزالي وقبل تلاوته بكل ارتياح واعجب به وقدره حق قدره) فانكمش قايلاً وقال يابني ليس لي رغبة تامة بكتاب ابن تيمية اذ ليس بيني و بينه صحبة(١) زائدة. فقلت ياسيدي انتم استاذ هذا الولد الغر ولربما ان يكون اخطأ باغتباطه بهذا الكتاب ودخل عليه من قبله فارجو انقاذي مما تسرب الى ذهني القاصر من اغلاط فيما اذا كان مؤلفه تنكب عن منهج الصواب. فاجاب رحمه الله حقاً ما تقول هلم فاقرأ بسم الله. فقرأته بمن علم الانسان ما لم يعلم اني لم اتجـاوز قليلاً منه حتى طفق يعجب به ولم اتمه حتى شغف به وامرني تواً بابتياع نسخة منه واخذ يطريه و يطري مؤلفه ويرشد تلامذته وجميع المختلفين الى رحابه من حملة العلوم الشرعية الى اقتناء هذا الكتاب والاطلاع عليه.

وهنا استميح عفو القارئ لانني بهـذا الاستطراد ابتعدت

---

(١) يريد انه لا يحبه كما يحب الغزالي

به قليلاً عن دائرة الموضوع فاعود قائلاً . ان جميع مـا يتوقف عليه فهم متن الشريعة يتوقف عليه ايضاً الوقوف عَلَى اسرارهـا وحكمة تشريع احكامها و يزيد عليه بانه يحتاج الى تحكيم العقل لصحة الاستدلال والاستنتاج والاستقراء ومعرفة مسالك العلة ونحو ذلك . والى علم الاجتماع و بعض العلوم الكونية . وبتجمع هذه العلوم واقتران بعضها ببعض يتولد هذا الاثر وهو ما يدعى علم الحكمة الدينية . او فلسفة الشريعة او علم اسرار الشريعة وحكمة التشريع . وتعريفه علم يعرف به حكمة تشريع الاحكام الدينية وحفظ النسب الشرعية . وموضوعه النظام التشريعي من حيث المصلحة والمفسدة . وغايته عدم وجدان الحرج فيما شرعه الله ورسوله . والانقياد التام للاحكام الشرعية . وكمال الوثوق والطمأنينة بها . والانجذاب اليها والمحافظة عليها . ومن هذا العلم يتولد علم السياسة الشرعية وهو مراعاة المصالح التي من اجلهـا وردت النصوص و بنيت الاحكام لان الاصل في النصوص التعليل اذ لا يوجد فيها مايعلو عَلَى متناول العقول الا ما كان من قبيل الامور التعبدية عَلَى انها ليست ممـا يصعب التسليم به لحكمة العليم الحكيم .

ومن سبر الفقيد بمسبار الروية وصحبه صحبة علمية ولازم مجالسه ملازمة استفادة واقتباس وشاهد عديم جموده وسمع مباحثه ودلالته على امهات كتب الشريعة التي درج بين طياتها امثال هـذه الفرائد التي هي لباب الشريعة يحكم عليه بانه من حكماء الشريعة وعلماء سياستها الواقفين على لبابها وامرارهـا وحكمة تشريع احكامها ·

واذا كان هذا متوقفاً على تحكيم العقل فوظيفة التوفيق بين الدين والعلم والعمران التي نحن بصددها اجدر بهذا التوقف ·

ولا يمكن ان يتخذ العقل حكماً في النظريات المكتسبة غير الضرورية الا بمحك النظر ومعيار العلم صيانة للذهن عن الاغلاط الفكرية في ترتيب المعلومات للتوصل الى المجهولات سواء كانت من قبيل التصور او الحكم فلأجل معرفة الحقائق معرفة صحيحة والحكم عليها حكماً صادقاً وترتيب الادلة وكيفية الاستدلال بها احتيج الى صناعة المنطق والجدل وجميع انواع الفلسفة العقلية وهو الامر الثاني من الامور الخطيرة التي تتوقف عليها الوظيفة المذكورة ·

لكن بشرط العمل بموجب هـذه العلوم وهو تمرين العقل باستخدام هذا الميزان لاننا نرى كثيراً ممن احرزوا قصب السبق

في مضمار العلوم العقلية كالمنطق وغيره عاجزين عن الاستدلال والمقايسة والاستنباط كما انه ليس لديهم ارتقاء فكري او فكر جوال ذلك لانهم جمدوا على الصناعة بدون استخدامها كجمود من يتعلم علم البلاغة ولا يستطيع الترسل او علم العروض ولا يستطيع قرض الشعر لانهم تعلموا الصناعة وتقاعسوا عن استخدامها .

ثم لابد من الامر الثالث من الامور الخطيرة التي تتوقف عليها الوظيفة وهو مراعاة القانون الطبيعي والدستور الرياضي الذين لايمكن تخلفهما . وتأويل النصوص الشرعية التي ظاهرها يخالفهما ليتسنى التوفيق بين الدين والعلم وسير كل منهما بجانب الآخر . وهما بالحقيقة صنوان شقيقان لامنافاة بينهما الا في بعض ظواهر النصوص الواجبة التأويل ما دامت تناقض مايبرهن عليه الدليل القطعي كقوله تعالى (وجدها تغرب في عين حمئة) اي فيما يترائى للناظر . وذلك مجاراة لمحيط لم يكن العلم منتشراً به وقتئذ . وكيف ينافي احدهما الآخر ومصدرهما واحد فان خالق الكائنات الطبيعية هو منزل الشرائع السماوية قال سبنسر الفيلسوف الانكليزي الذائع الصيت (والعلم الطبيعي مناقض ولا شك للخرافات التي تغتصب اسم الدين ولكن لا يناقض جوهر

الدين) ونقل عن هكسلي انه قال (ان العلم الطبيعي الصحيح والدين الصحيح توأمان يذهب انفصال احدهما عن الآخر بحياة الاثنين . وعلى قدر موافقة للعلم للدين يكون نجاح العلم ونماؤه وكذلك الدين يكون نموه وفلاحه على قدر رسوخ اصوله في بطون العلم = الى ان قال = وليس العلم الطبيعي منافياً للدين بل المنافي له هو ترك ذاك العلم والامتناع عن دراسة المخلوقات المحيطية بنا الخ »

وما يدخل على المارقين من الناشئة والفتيان في عقائدهم الدينية . وعلى الجامدين من الشيوخ والكهول في ملكاتهم الفكرية الا من عدم التوفيق بين العلم والدين المنبعث عن عدم الوقوف على لباب الدين وعدم الضلاعة بجوهر العلم فصار كل منهما ينكر ما عند الآخر حتى كاد يقضى على الاثنين فنصبح (لاسمح الله تعالى) خاسري الصفقتين مجردين من السعادتين قال حجة الاسلام امامنا الغزالي (١) في شأن العلوم الرياضية ما خلاصته (اما الرياضية فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وهيئة العالم وليس شيء منها يتعلق بالامور الدينية (٢) نفياً واثباتاً بل هي امور برهانية لا سبيل الى

---

(١) في كتابه المنقذ من الضلال (٢) اذ ليس من وظائف الدين

بجاحدتها بعد فهمها . وقد تولدت منها آفتان . الاولى من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها فيحسن بسبب ذلك اعتقاده بالفلاسفة ويحسب ان جميع علومهم في الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم ثم يكون قد سمع جحودهم وشهد تعطيلهم وتهاونهم بالشرع او تراعى اليه ذلك عنهم فيتبعهم بالجحود بسائق التقليد المحض لزعمه ان الدين لو كان حقاً لما خفي على امثال هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم وفاته انه لا يلزم من الحذق في

الاساسية ان يبرهن مثلاً على دورة الارض او سكونها لان ذلك من وظائف العلم لا من وظائف الشرع وان لم يكن ثمة مانع من الايماء والتلويح في بعض المواضن لكن يستدل بالبراهين الرياضية على اثبات الواجب وقدرته فهي من العلوم التي تؤيد الدين وتشد ازره اه مؤلف .

(١) قلت ما اشبه الليلة بالبارحة فالتاريخ يعيد نفسه لان كثيراً ممن تذقوا قليلاً من هذه العلوم يواطئون الجاحدين من دعاة الالحاد بمجرد الاستسلام المحض والتقليد الاعمى بدون تحكيم العقل او الرجوع الى النقل او الاستهداء من المهتدين وافظع شأناً منهم المتشبهون بهم من الجهلاء الاغرار الذين ليسوا بالعير ولا بالنفير فانهم يتظاهرون بالمروق من الدين والاستهزاء بالمتدينين ليقال عنهم انهم من المتمدنين المتنورين كأن التمدن بزعمهم الانسلاخ من ربقة الدين والتهاون بآدابه وولوج ابواب السفه والفجور . ولعمرك ان هذا منتهى درجات الخزلان . وغاية التدلي الى دركات الشقاء والخسران اه مؤلف .

صناعة الحذق في صناعة اخرى فلا يلزم من البراعة في الهندسة البراعة في الطب واذا برهنت له بذلك لا يقع منه موقع القبول لان كلا من غلبة الهوى وشهوة التعطيل وحب التكايس يحمله عَلَى حسن الظن بهم . الآفــة الثانية نشأت من صديق للاسلام جاهل ظن ان الدين ينبغي ان ينصر بانكار كل علم منسوب اليهم فانكر جميع علومهم وادعى جهلهم بها حتى انكر قولهم في الكسوف والخسوف ويزعم ان ماقالوه عَلَى خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك في برهانه . لكن اعتقد ان الاسلام مبني عَلَى الجهل وانكار البرهــان القاطع فيزداد الفلسفة حبــاً وللاسلام بغضاً . ولقد عظم عَلَى الدين جناية من ظن ان الاسلام ينصر بانكار هذه العلوم وليس في الشرع تعرض لهــذه العلوم بالنفي والاثبات ولا في هذه العلوم تعرض للامور الدينية) اه

يريد بذلك انه لا منافاة بين الدين والعلم ومعنى قوله بالنفي والاثبات انه ليس في الدين ماينفي النظريات العلمية كما انه ليس فيه ما يثبتها حتماً بل يومئ اليها تلويحاً في معرض الحض على التفكر والتدبر في بديع صنعه تعالى بهذا النظام والاحكام . واما نظرية كون اختلاف الليل والنهار مثــلاً ناشئ عن دورة الارض او

دورة الشمس فبيانه على سبيل القطع ليس من وظائف الشرائع .
ومعنى قوله ولا تعرض في هذه العلوم الى الامور الدينية انه ليس في نظرياتها وقواعدها ما يصادم الدين وينافيه اذ ليس في عدادها مايدل على نفي الصانع بل بالعكس فانها تدل على وجوده لان انتظام هذا الكون ضمن نواميس وقوانين يبرهن على باهر قدرة مكونه وفائق حكمته فاصبحت دراسة العلم ضربة لازب لتأييد عقائد الدين به على ان الله تعالى امر في مواطن كثيرة من كتابه الحكيم بالنظر والتفكر والتدبر في باهر صنعه الذي اتقن كل شيء ولا يتم النظر والتدبر الا بالعلم فوجب تعلم هذه العلوم والتوفيق بينها وبين الدين وتأييده بها .

وقد عني حكماء الاسلام امثال الغزالي وفخر الدين الرازي وابن رشد بالتوفيق بين الدين والعلم وتأييد الاول بالثاني كما يؤيدونه بفلسفة العقل ويدفعون الشبه المسددة بحسب الظاهر على الدين بالعلم . وكانت مناهج الادلة لديهم عديدة وافضلها طريق العناية ودليل الاختراع لانهما نهج القرآن وهي طريقة ابن رشد وقد نهج الغزالي هذا المنهج في بعض كتبه .

ولا يخفى ان التوفيق بين موضوعين يحتاج ضرورة الى العلوم

المتعلقة بهما . فكما يجب على صاحب هذه الوظيفة ان يكون من علماء الدين الراسخين يجب ان يكون من فلاسفة العلوم الكونية اذ لا يمكن مراعاة النواميس الطبيعية والقوانين الرياضية في التطبيق والتوفيق الا على يد علمائها امثال فقيدنا فانه قد ولع بهذه العلوم وتلقاها عن نوابغ اهلها . ولم يقتصر على ذلك بل كان يطلع على كل ما يترجم من العلم الغربي المتجدد بتجدد الاكتشاف والاختراع لفرط غرامه بمطالعة المجلات العلمية التي هي واسطة نقل العلم من الغرب الى الشرق فضلاً عن دراسته الفلسفة القديمة وانتقائه زبدتها النافعة ونبذه زبدها التافه ومزجه البقية الصالحة من القديم بالطائفة الصحيحة من الحديث ليتم له التوفيق بين العلم والدين والدفاع عن حوزته . وصيانته من شبه الملحدين من اعدائه . وخرافات الجامدين ممن يدعون انهم حملته وانصاره امثال الذين عناهم الامام الغزالي ممن ينكرون جميع نظريات العلم الثابتة بالبراهين القاطعة كالكسوف والخسوف وكروية الارض .

ويشهد الله ان من اعظم العوامل تأثيراً في مروق بعض خريجي المدارس العصرية وتملصهم من الدين هو جمود امثال هؤلاء المعلمين السطحيين القائلين بتسطح الارض وارتكازها على قرن

الثور ونحو ذلك من نفاضة جراب الخرافات التي تركها القدماء ودسها الوضاعون في كتب الاسلام كما يدس السم بالدسم فان التلميذ يتلقى مثلاً من معلم العلوم الرياضية ان الارض كروية بالبرهان القاطع كما قال الغزالي في مسئلة الكسوف والخسوف . ثم يغشى حلقة المعلم الديني من ارباب هذه الطبقة الجامدة الذين يريدون ولا يدرون ما يراد ويوردون ولا يعلمون مواقع الايراد فيسمع منهُ ان الارض غير كروية وان القول بكرويتها كفر والحاد . وربما يروي احاديث موضوعة تصادم مايثبت بالدليل القاطع وليس لديه برهان يثبت به دعواه سوى ما يتسلح به من التكفير والتضليل وشن الغارة على العلم واهله . فيهزيء التلميذ به وبدرسه ويتسرب الى ذهنه القاصر ان هذا هو الدين فيمرق منه مروق السهم من الرمية بعد ان رسخ في ذهنه ماتلقاه عن استاذه الرياضي بالبرهان القاطع الذي لايمكن نقضه كما لايمكن نقض قاعدة اثنين باثنين اربعة

ولو كان هذا التلميذ ممن احاط بالدين علماً وعرف اللباب من القشور وفرق بين الغث والسمين لما تسرب اليه هذا الغلط المشين . كما انه لو كان من الراسخين في العلم لادرك من طريق

العلم نفسه انه لا منافاة بينه و بين الدين كما ادرك ذلك الفيلسوف سبنسر وامثاله من الفلاسفة ورجالات العلم المادي ٠

ولو قيض الله لناشئة المسلمين اساتذة مثل فقيدنا لما خسروا دينهم وعرضوا بكيانهم القومي الى خطر الانقراض والاندماج بهوية غيرهم من الشعوب لانني اعتقد ان الملة الاسلامية والقومية العربية شقيقتان متلازمتان فلا قوام للاسلامية الا بالعربية ولا قوام للعربية الا بالاسلامية و بالقضاء عَلَى احديهما - لاسمح الله تعالى - يقضي عَلَى الثانية ٠

ولما خسر الاسلام ايضاً يوماً فيوماً جماهير من ابنائه لا يستهان بعددهم بدلاً من ان يؤازروه وهو في احرج الاوقات والمواقف من تداعي اعدائه عليه وتسديدهم كل سهم على فؤاده من كنانة حنقهم عليه طفق هؤلاء الابناء العاقون يشدون ازر اولئك الاعداء المكافحين بالطعن عليه والاستهزاء به والمفاخرة بالمروق منه ونبذ عقائده وتعاليمه حتى كاد يعود غريباً كما بدا ولاحول ولا ٠

فجمود الجامدين من ادعياء نصرة الدين الذين يحاولون الحيلولة بينه و بين العلم والعمران و يضعون العقاب في سبيل التجدد

والرقي زاد في طين البلاء بلة لاسيما في عصر استفاضت فيه الشكوك وكثرت الاوهام وانثالت شبه العلم من كل فج وافتتن الناس بمدنية الغرب الباهرة .

ولا ريب ان رجلاً كالفقيد يبذل جهده لازالة العقبات التي تحول دون الرقي الحديث ويمهد السبل لقبول كل جديد نافع لايحظره الدين . ويسعى لازالة الخلف واخماد اوزار الحرب المستعرة بين المحافظين والمجددين بتصوير الدين نقياً من كل شائبة والدفاع عنه وتطبيقه على العلم والعمران وتصويرهما صديقين للدين وتقريبهما الى قلوب رجاله لخليق بان يسطر اسمه باحرف من نور في سجل حكماء الاسلام ودعاة الاصلاح لان ذلك من ضروب الحكمة التي قال الله تعالى في شأنها (ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً) .

وبمقتضى الاحتياج الى العلوم المتعلقة بموضوعين يراد التوفيق بينهما . كان ايضاً رحمهُ الله من علماء الاجتماع والعمران لتوغله بادب الاسلام وتاريخه السياسي والاداري والعمراني وكل ماله مساس باجتماعياته . ووقوفه على طبقات اهله من الامراء والوزراء والفلاسفة والعلماء وخاصته وعامته . واطلاعه على اسباب ارتقاء

دوله وانحطاطها او انقراضها . ووقوفه على احوال الامم السائرة القديمة والحديثة . واطلاعه على كل مايترجم عن مدنية الغرب وسياسته واجتماعياته واحتكاكه بعلمائه المستشرقين وتبادله الاستفادة بينه و بينهم حيث كان يقتبس منهم ماينفع المسلمين ويقبسهم ما يثبت سماحة الاسلام ومدنيته ومجد المسلمين وتمدنهم وهذا ماجعله في عداد حلقات السلسلة التي تصل الشرق بالغرب كما شهد له بذلك علماء الشرق المستغربون وعلماء الغرب المستشرقون لان كثيراً من كتابنا البحاثين كانوا يستعينون في تآليفهم بارشاده اياهم الى المصادر التي يستقون منها نظراً لتفوقه على معاصريه بمعرفة المظان كما ان كثيراً من علماء المشرقيات في الغرب كانوا يستفتونه فيما يتعلق بعلوم الشرق نظراً لضلاعته في التاريخ والآثار وطبقات الرجال والملل والنحل وسيرة اهلها ومنازعهم وابحاثهم ومناقشاتهم . وكان بينه و بينهم صداقة يراسلهم و يراسلونه على اختلاف قومياتهم من انكليز وافرنسيس ومجر والمان وطليان واسبان ونمسويين وهولنديين واسوجيين . نخص بالذكر منهم امثال كولدزيهر المجري الاخصائي في الملل والنحل وهرتن الالماني استاذ ألسنة الشرق بجامعة (بن) في المانيا ومرغليوس وبروان

الانكليزيين وكايرمونكانو الافرنسي من كبار علماء الآثار وكويدسي الطاياني . وكلهم من المعجبين به المغتبطين بصداقته ومراسلته وقد زار بعضهم في بعض رحلاته وزاره كثير منهم اثناء رحلاتهم الى الشرق .

(دعوته الى الاخلاق والتربية)

اكثر الناس من الدعوة الى العلم فما من عالم او كاتب او خطيب او شاعر الا ونراه يدعو الناس الى العلم والتعلم وندر من نراه يدعو الى الاخلاق والتخلق مع الدعوة الى العلم والدعوة اليه وحده ناقصة لاقتصارها على احد شطري فضيلة الحكمة وهو العلم واغفالها الشطر الثاني وهو الاخلاق . وهما توأمان متلازمان لاغنى للامم باحدهما عن الآخر . فعلم بدون ملكة لاخلاق سفاهة . واخلاق بدون ميزان العلم بلاهة .

واذا دقق الباحثون عن احوال الامم يجدون انه ما من امة بلغت اقصى درجات المجد والسؤدد وعرجت الى مستوى السعادة والكمال الا بجمعها بين فضيلتي العلم والاخلاق . وان الامم الحلية بالعلم الخالية من الاخلاق اشد ضرراً على الهيئة الاجتماعية

من الامم العاطلة منها . لان العالم اذا كان سافل الاخلاق يتخذ علمه سلاحاً لايقاع الضرر في البشر . لهذا ورد في ذم علماء السوء ما ورد وهم الذين تفقهوا ولم يتخلقوا فاتجروا بالدين او الفضيلة . وما ذلك الا لاقتصارهم عَلَى فقه الجوارح واغفالهم فقه القلوب .

وعلى قدر نصيب الامة من الاخلاق يكون حظها من الكمال والرفعة . وعَلَى قدر انفراجها عنها يكون نصيبها من النقص والانحطاط . وان اعظم العوامل الباعثة عَلَى شقاء البشر وسفالتهم هو سفالة الاخلاق . الا يرى ان جميع ما نتذمر منه من اعراض امراضنا الاجتماعية كالجبن والشره والتواكل والتخاذل والتحاسد والتظالم والتغابن وانواع العدوان والدنائة والصغار والتزلف وخور العزائم والجمود عَلَى الموجود والتقاعس عن مباراة الامم الراقية في اسباب رقيها وتقليدها في السفاسف ونحو ذلك من الرذائل . هو نتيجة ضعف ملكة الاخلاق فينا . قال بعض الحكماء (ان الامم كناية عن الاخلاق فاذا كانت اخلاقها رفيعة رفعت وارتفعت الى مصاف الامم الناجحة . واذا كانت اخلاقها ناقصة فلا مناص من سقوطها ومصيرها الى الاضمحلال) ولم يحدث رقيّ

الامم المشهود عفواً بل هو نتيجة العلم والتربية والاخلاق كما قال بعض القواد الاميركيين (ان الامة اليابانية لم ترقَ بالعرض والاتفاق بل باخلاقها) وانما اقتصر عَلَى الاخلاق دون العلم لان قليلاً منه مع كثير منها خير من العكس . فالاخلاق هي القسطاس الذي توزن به مقادير الشعوب . والمحك الذي تنقد به سرائرهم فعلى قدر تأهبهم للخير يكون قسطهم منه . لان الاخلاق مناط الاحكام . ولم تأتِ الشرآئع المنزلة من حيث الامر والنهي عَلَى مرتبتين مختلفتين وهما التشديد والتخفيف الا لاختلاف امزجة المكلفين وتباين اخلاقهم . وان كثيراً من الاحكام الفرعية التي تدور مع العلة تتبدل[1] بتبدل الزمان حسبما يقتضيه فساد اهله . كما ان القوانين الموضوعة اتت ايضاً عَلَى هاتين المرتبتين لذلك الاختلاف وهذا التباين . فاختلاف القوانين مبني عَلَى اختلاف الموازين والمكاييل الفني في علم الاخلاق . وهو عبارة عن تفاوت اعتبارات الناس للاعمال الصالحة او الطالحة .

(١) كما روي عن ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها انها قالت لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما احدثت النساء بعده لمنعهن المساجد . وكثيراً ما يصرح الفقهاء بان هذا كان جائزاً لكنه حظر لفساد الزمان اي لفساد اخلاق اهله اه مؤلف

واختلافهم ايضاً في الاصول التي يبنون احكامهم عليها . ولهذا المكيال ضلع كبير في اختلاف العقوبة تشديداً وتخفيفاً مع اتحاد نوع الجريمة وفقاً لمقتضى الاحوال المشددة او المخففة المنبعثة عن اختلاف البواعث على اقتراف الجريمة .

وقد قدر علماء اصول الشرائع وفلاسفة التقنين ان مركز الاخلاق والقوانين واحد وهو سعادة البشر لكن محيط احدهما وهو الاخلاق اوسع من محيط الآخر وهو القوانين لسيطرة القانون على الجوارح وسيطرة الاخلاق على القلوب . وبتعبير آخر لسيطرة الاول على الظاهر وسيطرة الثاني على الباطن والباطن يؤثر على الظاهر ولا عكس لهذا كان الظاهر عنوان الباطن فمن حسنت اخلاقه حسنت اعماله . كما ان مبني الاخلاق الرحمة ومبني القوانين العدل والرحمة فوق العدل واوسع منه .

فمن ثمة نرى لدى التدقيق ان كل امة تكون قوانينها مبنية على الحذر والشدة والاحتياط وتحديد سعة التصرف وغلظة العقوبة تكون ملكة الاخلاق فيها ضعيفة او مائتة والعكس بالعكس . فهذه قوانين المالية عندنا مثلاً نراها مبنية على امتن دعائم الدقة والشدة واقصى درجات الحذر والمراقبة واضيق انواع

تحديد السلطة واغلظ العقوبات حتى ان هفوة الموظف الطفيفة لا تخلو عن مؤاخذة وانذار . فلا يستطيع مدير خزينة المال مثلاً ان ينقد قرشاً واحداً بدون سند تجري عليه معاملة طويلة عريضة كما هو معروف عند موظفي المال والادارة . اليس هذا ناشئاً عن ضعف ثقة واضع القانون بامانة مجموع الامة المنبعث عن سفالة اخلاقها؟ . ومثل ذلك قوانين المرافعات واصول المحاكمات وجعل المحاكم مراتب بعضها فوق بعض من بداية الى استئناف الى تمييز

عَلَى ان جميع ضروب هذا الاحتياط وانواع هذه الدقائق لا تستأصل شأفة المصائب من الظلم والرشوة والاختلاس ونحوها من الرذائل كما تستأصلها الاخلاق الفاضلة . لكن تخفف ويلاتها في الجملة عَلَى قدر الامكان . لان اراذل الموظفين قد يتذرعون بالتواطؤ والاحتيال عَلَى القانون لنوال بغيتهم كما يتذرع بالحيل الشرعية فقهاء السوء الذين يتجرون بفقاهتهم تلقاء دنياهم .

وشتان ما بين الخوف من تبعة القانون وبين الوازع الوجداني المنبعث عن الوازع الديني او المؤثر الادبي عَلَى زعم من يجنح الى الاكتفاء به عن الوازع الديني . ونحن معشر المتدينين وان كان لا يسعنا انكار وجود فئة في الهيئة الاجتماعية في كل عصر من

ارباب المبادئ السامية المنبعثة من المؤثر الادبي وهو مايعبرون عنه بالفضيلة لكننا نادي باعلى صوتنا ان هذا المؤثر غير مطرد ولا هو مضمون مثل اطراد الوازع الديني وضمانته باعتراف كثير من الفلاسفة كما المعنا الى هذا في المقدمة ·

ثم ان للتخلق بالاخلاق الفاضلة والاقلاع عن اضـداد‌ها وسائل عديدة · وانجعها فيما اعلم طريقة علماء القلوب من المرشدين لانها مبنية عَلَى مداواة النفوس وتصفية القلوب بالرياضة والمجاهدة والسير والسلوك · ولا اعني بذلك طريقة المعطلين لانها ليست من الكمال في شيء كما روي عن ام المؤمنين عائشة الصديقـة رضي الله عنها انها رأت رجلاً متماوتاً فقالت ما هذا ؟ فقالوا زاهد فقالت (كان عمر بن الخطاب رحمه الله زاهداً وكان اذا قال اسمع · واذا مشى اسرع · واذا ضرب في ذات الله اوجع ·) بل اعني طريقة حكماء الشريعة الكاملين ارباب الجناحين الذين جمعوا بين ادب الظاهر والباطن بالتفقه بالشريعة والتخلق بالطريقة [(١)] وقليل ماهم ·

(١) اي اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم باقواله واعماله واخلاقه هذه هي الطريقة المحمدية وهذا منهاج السنة السنية رزقنا الله ذلك

ويلي هذه الطريقة مسلك التربية المدغمة بنظريات الاخلاق العلمية سواء كان من طريق الشريعة المحضة (فقه القلوب) . او الحكمة الاخلاقية المحضة (فلسفة الاخلاق) . او طريقة الجمع بينهما بمزج احدهما مع الآخر وهي طريقة اطباء امراض القلوب امثال ابي حامد الغزالي وابن عربي الحاتمي رحمهما الله تعالى .

اما طريقة الوعاظ الذين يحلقون في المساجد ويمزجون مواعظهم الاخلاقية ونحوها بالقصص والحكايات فهي عقيمة عَلَى الاغلب قلما ان تفيد لانها دعوة سطحية غير مؤسسة عَلَى ميزان او مكيال فلا بد للتربية الاخلاقية من معرفة امزجة المريدين بمحك النقد الدقيق ومقياس التجربة الصحيح ليعرف مقدار قابليتهم للخير حسب استعدادهم الفطري وهذا يتوقف على معرفة علم النفس ودقائق الشريعة . وفلسفة الاخلاق . وقوانين الارشاد . واصول التربية . ومن محصلة هذا المجموع يتكون علم سياسةِ الارشاد وهو حسن التصرف بتربية السالكين والسلوك بهم من المناهج الملائمة لقابليتهم الفطرية واستعدادهم المكتسب لئلا يضلوا السبل فيفرطوا و يفرطوا او يرجعوا من نصف الطريق .

وكما انه لايسوغ لاحد ان يتصدى لمعالجة مرضى الاجسام ما لم يكن حاذقاً بعلم الطب ووسائله . لا يجوز لاحد ان يتصدر عَلَى منصة الارشاد و يتصدى لمعالجة علل النفوس وامراض القلوب مالم يكن بارعاً بطب القلوب ووسائله عَلَى ان طب الارواح ادق من طب الاجساد عَلَى نسبة الفرق بين الروح والجسد في اللطافة والكثافة . لاسيما اذا كان هؤلاء القصاصون من المرتزقة الذين يأكلون الدنيا بالدين فان مواعظهم المصنعة ليس لها اقل تأثير عَلَى قلوب الملتفين حولهم بل لاتلبث ان تدخل من الاذن اليمنى حتى تخرج من الاذن اليسرى لانها الفاظ سيالة غير مبنية عَلَى قواعد الارشاد صادرة عن افواه افواه تباين اقوالهم احوالهم لان قلوبهم مفعمة بالرعونة وحب المال والجاه . وقد قيل : كل كلام يخرج من القلب فغايته حلة القلب الذي منه خرج . لهذا اقام النكير بعض السلف وشدد الوطأة عَلَى القصاص حتى يروى عن عمر وعلي رضي الله عنهما انهما ضربا القاص وطرداه من المسجد لتنكبه عن الخطة التي رسمتها له الشريعة المطهرة .

لذلك كان الفقيد ابعد الناس عن التحليق في المساجد وكان ينكر عَلَى المحلقين امثال الذين طردهم عمر وعلي والحسن البصري

ويريدهم على ان ينهجوا على آداب الواعظين المقبولة شرعاً المحمودة عقلاً .

ولما رأى رحمه الله جدب الزمان من حكماء الاخلاق . وساسة الارشاد . وان معالم الاخلاق طمست . ودراستها قد درست . وان وظيفته وهي الدعاية الى الاصلاح العام لم تمكنه من التفرغ لارشاد السالكين . وعظة الغافلين . وتربية الاحداث المبتدئين . حاول احياء دارسها بالدعوة الى دراستها . فكما انه كان من دعاة العلم كان ايضاً من دعاة الاخلاق . وانني لم الحظ بمجلسه مرة الا وسمعته يئن ويشكو من انحطاط الاخلاق فكان يحض الطبقات المختلفة على مزاولة علم الاخلاق . وعلى التخلق من اية الطرق . ويرشدهم الى كتبها النافعة مثل مقالات الغزالي والاصفهاني وابن مسكويه وغيرهم من أئمة هذا الشأن ويتشبث بنشر ماكان مطوياً منها وابرازه الى عالم الطباعة كمداواة النفوس لابن حزم والادب الكبير لابن المقفع وتفصيل النشأتين والذريعة الى مكارم الشريعة للراغب الاصفهاني وغيرها من الفرائد العائدة الى موضوع علم الاخلاق وفلسفته ووسائله .

كذلك عنايته بالدعوة الى التربية الصحيحة على اختلاف

ضروبها . وقد اتخذها الفيلسوف سبنسر مقياساً يفاضل به بين الامم . وقال : لا تكون الامة امة حية الا اذا تربى افرادها ولا يمكن ان تحيى حياة صحيحــة اذا لم تعن بالتربية . وقال بعض الحكماء (التربية ثمرة الحياة برمتها) . والتربية الصحيحة هي مابنيت على قواعد علمية مخصوصة كقواعد علم النفس وغيره بان يعمد المربون الى تربية وجدان الاحداث . وترسيخ ملكات المشاهدة باذهانهم . وتحويل تعليمهم من مرارة وعذاب الى لذة وعذوبة لان تلذذ الطفل بالدرس اكبر ضامن لفهمه ورسوخه . وبث الافكار الصالحة في اذهان الاطفــال عفواً اثناء التعليم والمحادثة بدون اظهــار تعمد بثها . والسعي وراء اعتيادهم عَلَى الاستقــلال النفسي واستعمال قواهم ومواهبهم فيما خلقت له . وتنمية قوة الارادة بهم والنشاط . والتمرين عَلَى العمل والاندفاع الى عمل البر والخير . وحملهم عَلَى مراعاة قوانين حفظ الصحة اذ بضعفها يضعف كل شيء لان العقل السليم بالجسم السليم . ومن اهم ما يجب عَلَى المربي ان يُعنى به تنمية الشعور الديني في اذهان الاحــداث من طريق الفطرة حين دراسة علم الاشياء سواء كان في دراسة سلاسل القراءة العائدة الى المبتدئين او دراسة

التاريخ الطبيعي العائدة الى الطبقة الارقى من المبتدئين . فاذا مرّت مثلاً عَلَى الاطفال امثولة طائر صغير تضمنت كيفية بنائه بيته وتربيته اولاده يبث المعلم في اذهانهم ان الذي ألهمه ذلك ومنحه هذا الادراك هو الخالق الذي كونه والذي تجب اطاعته وامتثال اوامره باسلوب يلائم مدارك الطفل . كما يجب عَلَى الاستاذ حين دراسة التاريخ الطبيعي ان يثبت للتلامذة قدرته تعالى بموجب نظام هذه المخلوقات العجيب كالنحل الذي يبني خلاياه باحكم نظام وابدع اتقان ضمن قواعد الهندسة وهلم جرا . كما يجب عَلَى معلم العلوم الشرعية ان يبين لهم حكمة التكاليف الشرعية فيبين مزايا الطهارة والصلاة والزكاة مثلا وقبح السفاهة وانواع الفسق ونحو ذلك على قدر قابلية اذهانهم .

وكان مبدأ فقيدنا ان نتربى الناشئة الجديدة تربية جامعة بين التربية الاسلامية السلفية والتربية العلمية الحديثة الخالية من آفات المدنية الحاضرة .

تنشيطه على انتشار الصحافة

ودعوته الى مطالعة الصحف والمجلات

الصحافة مرآة الامم ورائد العلم وبريد الاخبار ولواء الحضارة

والعمران . وقد قيل (الصحافة منار كل امة فهي في بلاد مصباح كهربائي وفي غيرها سراج زيتي) وقيل ايضاً (مرآة الشعوب الدالة عَلَى حقيقة احوالهم صحافتهم ومرآة الكاتب انشاؤه) فهي التي تثقف العقول وتنير الافكار وتصقل الاذهان وتهذب الاخلاق . وتقتبس انوار المعارف المنبسطة اشعتها على الامم الراقية وتشرق بها عَلَى الامة المنحطة . وتصون الحقوق وتراقب اعمال الحكومات قال جفرسون (عندي ان اقيم في بلاد ذات جرائد ولا قانون خير من ان اقيم في بلاد ذات قانون ولا جرائد) وكتب اللورد كرومر في بعض تقاريره المصرية (ان خوف التشهير عَلَى صفحات الجرائد يمنع كثيراً من الشرور ويقلل العيوب التي تعتور اعمال الحكومة)

لهذا كان الفقيد ينشط الاكفاء عَلَى انشاء الصحف السياسية والاجتماعية . والمجلات العلمية والادبية . فكم من مجلة او جريدة انشأت في القطر السوري او المصري بتنشيطه وموآزرته . ويدعو المستبصرين الى التبصر بالصحف النافعة والمجلات المفيدة ويبتهج بها . وكان له شغف بالاطلاع عليها وتتبعها خصوصاً التي تكثر من الترجمة عن الغرب واقتطاف ثمرات علومه اليانعة لانه يرى ان استعدادنا للتأليف لما يتم نضاجه بعد وان الاخلق بنا

ان نقتبس عمن سبقونا بمراحل متنائية في العلم والمدنية . ويرى ان مطالعة مقالة علمية في مجلة او جريدة اكثر فائدة من كثير من الدروس الحافلة بالمئات .

كما انه كان احسن الله مثواه يتمضض من الصحف الضارة الضالة المضلة التي تمثل سفاهة منشئيها وتنكبهم عن منهج الحق القويم . وصراط الهداية المستقيم . ويحذر خاصته من الاخذ باقوالها او الجنوح الى التمذهب بارائها . ويبين آفاتها ومضارها . ولا مراء ان امثال هذه الجرائد اثمها اكبر من نفعها لانك لاترى بين اعمدتها الا سلقاً وقذفاً وطعناً عَلَى بعض الناس . او مداهنة وتملقاً لآخرين او هذراً يدعو الى تشويش الافكار . او تمويهاً يستوجب تضليل العقول . او تهوراً يبعث عَلَى تفريق الكلمة وتمزيق الجامعة . واضاعة الحقوق . وقد قيل (الويل لشعب تمثله صحافة سفيهة فانها تجعل له سمعة سيئة وان كانت سيرته حسنة) وقيل ايضاً (الجرائد قادة الشعوب فهي تقود الى الخير اوتقود الى الشر والويل)وايضاً (الجريدة سلاح قاطع فان كان في قبضة عاقل حكيم كانت كالسيف في يد ولد صغير يجرح به نفسه ويدمي جباه الناس)وايضاً (ادل دليل عَلَى انحطاط جريدة تساوه كتابها)

ويجب عندي ان لا تدعى هــذه الصحف جرائد حقائق واخبار . بل تدعى رقاع نهب واتجار . وار بابهــا عبدة الدرهم والدينار . ورقاع المتسولين التي تلقى امام المصلين خير منهــا فينبغي ان تطرح كالالقي وتنبذ نبذ النواة ويضرب بهــا عرض الحائط . وحقيق بحكيم مثل فقيدنا ان يمجها ويحذر منها .

(ارشاده الى الـكتب النافعة)

لا اعلم ان احداً من معاصري فقيدنا احاط بمعرفةِ الكتب المدونة بلسان العرب مثل احاطته . فما من كتاب مخطوط او مطبوع الا وقد اطلع عليه او عرف عنه شيئاً في الجملة اذا لم يتح له الاطلاع عليه فقد كان طيب الله ثراه معجم كتب سيار يضارع كشف الظنون او فهرست ابن النديم . فكم من كتب دفينة كالركاز ارشد المسترشدين اليها . وكم من كتب برزت الى عالم الطباعة والظهور بدلالته وهديه بعد ان كانت في طي الخفاء آيلة الى الدثور . وكم من مؤلف استعان مؤلفه عَلَى تأليفه بموازرته وتنشيطه .

***

خلاصة

(تتضمن دعوته الى كثير من خصال الخير)

وخلاصة القول ان فقيدنا رحمه الله تعالى كان من اعظم المنشطين . واكبر الدعاة الى كل مايفضي الى سعادة البشر سعادة محضة في الدارين من علم وعمل .

فكان يدعو المارقين الى التدين لكن بالدين الذي تركنا عليه الشارع صلى الله عليه وسلم ونهج عليه سلف الامة الصالح ويتحاشى الجمود والتقليد الاعمى . ويرفض كل ما ألصق بالدين من الحرج والتنطع والحشو والبدع مما لايلتئم مع الاسلامية السمحاء .

يدعو الى الاخذ بالنافع من التمدن الحديث مادياً كان او ادبياً . ونبذ الضار منه الذى استطار شرره وطبقت شروره الآفاق حتى ضجت منه صحف المتمدنين انفسهم . وبلغ تذمرهم من آفاته عنان السماء لانه مفسدة للاخلاق والآداب . مضرة للاجساد . مضيعة للاموال مدعاة للويل والثبور .

يدعو الى التجدد واقتطاف ماصلح واينع ثمره من كل جديد . وينهي عن كل مبتسر مما لم يتم نضاجه بعد .

يدعو الى العلم النافع من العلوم الادبية والمادية . والتعلم

بانجع الوسائل واقرب الطرق باصلاح اساليب التعليم والتأليف .

يدعو الى الارتقاء الفكري بدراسة العلوم الاجتماعية والمدنية والسياسية .

يدعو الى تعلم لغات الامم الحية ليتسنى فهم معنى الحياة . لاللزهو والتفرنج والاندماج بالاجنبي وتقليده على العمياء .

يدعو الى اصلاح التربية والتخلق بالاخلاق الفاضلة بالارشاد الى سياسة الارشاد . وقوانين التربية وفلسفة الاخلاق والدلالة عَلَى الكتب المدونة بهذا الشأن .

يدعو الى الوطنية والانسانية عَلَى شرط ان لا يتجر بهما خشية انقلاب القضية الى أثرة وانانية .

يدعو الى النظام في الاعمال والترتيب في الاوقات . واصلاح العادات ونبذ التقاليد الفاسدة والخرافات .

يدعو الى الجرأة الادبية بالتمرن عَلَى الترسل . والارتياض على الخطابة وقرض شيء من الشعر بشرط الملائمة لمقتضيات روح العصر الجديد عصر العلم والمدنية . لهذا كان ينتقد اسلوب خطباء المساجد وجمودهم عَلَى الخطب المدونة في الدواوين المناسبة لروح زمن مدونيها حتى لم يبق لها اليوم اقل تأثير في اثارة العواطف

وايقاظ الشعور لانها اقرب الى التلاوة منها الى الخطابة . كما كان ينكر على الشعراء المداحين او القداحين او المغرقين في الغزل والنسيب لان شعرهم المؤنق اشبه بداعية الى الفسق والفجور والنفاق والسباب والبذائة لذلك كان شعره عَلَى قلته من قبيل الحِكم والنصائح واذا كان فيه شيْ من الغزل فهو في عهد صباه على سبيل الندور اذكر من شعره ارجوزته في موعظة الاطفال التي كان يوزعها عَلَى تلامذة المدارس حينما كان مفتشاً عليها فمنها قوله:

(من رام نظمه بسلك السعدا   فليسعد الغير ليبقى مسعدا)
(يحب مثل ماله لغيره   يعطي اخاه جانباً من خيره)

وقوله :

(هل ذل عند الناس عبد يقنع   او عزّ سيد لديهم يطمع)

وقوله :

(ان رمت ان تشوق الاولادا   وان ترى من نجلك اجتهادا)
(فعده بالاتحاف يوم العيد   وقدم الوعد على الوعيد)

وقوله :

(فضل البنات الشغل والتطريز   ومن حوت علماً به تفوز)
(في سائر الاحوال الاحتشام   من جنسهن والحيا يرام)

وكلها من هذا القبيل مواعظ وآداب . وهي وان لم تكن من جيد الشعر لكنها ارفع قدراً واجزل فائدة من الشعر الجيد المصروف الى التغزل والتمدح مما يضر ولا يفيد سوى الاثم واضاعة العمر [1] .

كان يدعو الى التنشيط والابتعاد عن التثبيط . ويحب المنشطين ويكره المثبطين فينشط كل عامل عَلَى عمله سواء كان من الاعمال الادبية او المادية . وينقم عَلَى كل مثبط عن العمل ولو كان قليل الفائدة لانه يرى ان المثابرة على العمل الذي لا يفيد تؤدي فيما بعد الى العمل المفيد بناموس الارتقاء الطبيعي وناموس بقاء الانسب فيريد ان تثابر النفوس عَلَى العمل لئلا تعتاد عَلَى البطالة والكسل فكان ديدنه استنهاض الهمم ونفخ روح الحياة واحياء الشعور .

وبهذه المناسبة اذكر عَلَى سبيل الاستطراد انه كان لي في عهد الدراسة والطلب شغف عظيم بعلم اصول الفقه فخطر لي ان اشرح مختصر المنار فاستأذنته لما اعهده به من العطف عليَّ وتمحيضه النصح للمستنصحين فاجاب بكل ارتياح ان لا بأس اكتب

---

(١) وهذا حكمة الاحاديث الشريفة الواردة في النهي عن الشعر الذي يكون من هذا القبيل اه مؤلف

(بالباء المقلقلة) ولم يزد على ذلك . على حين ان هذه الكتابة مباينة لمشربه لانها تحصيل ما هو حاصل في الشروح مع زيادة فنقلات وتعليلات وايراد اعتراضات فائدتها اقل من ضرر تشويشها وحيلولتها بين الذهن وقواعد العلم . لكنه لم يشأ ان يثبطني لما ذكرناه آنفاً . وبعد ان تعمقت في العمل ورآني على وشك الاتمام طفق يعرض بعملي هذا في مجالسه وسمره قائلاً كلاماً مغزاه ان لا فائدة اليوم من التأليف الا اذا اتى المؤلف باختراع جديد وابدع باسلوب جديد . فينبغي مثلاً لمن يحاول الكتابة في علم اصول الفقه ان تكون كتابته مطابقة لمقتضيات روح العصر كأنه يريد بالكاتب في هذا الموضوع ان يمحص القواعد الشرعية السمحاء التي تؤازر الاخذ بالترقي الحديث وكل نافع من مقتضيات العمران والسعادة البشرية . والتي يتقلص بها ظل الجمود على القديم . وتقضي على التمسك ببعض فروع استنبطها اربابها وفقاً لمقتضى روح عصرهم . وبأن يوفق بين قواعد اصول الفقه الديني وبين اصول الشرائع المدنية والحقوق الاساسية لتجلى بذلك عظمة الفقه الاسلامي وسعته وتفوقه على القانون المدني وليتم الاستغناء بالاول عن الثاني .

وقد ذكرت انه رحمه الله يعينني ويعرض بكتابتي العقيمة لينشلني من هوة الجمود الى نجوة التجدد على سبيل التدريج والتكامل لاستحالة الطفرة مع انه كان بالوقت نفسه ينوه بي وبعملي في بعض المجالس بحضرة بعض طلاب العلوم ليحثهم على مباراتي ويثير هممهم باطرائي . وينشطهم بتقدير عملي . فقد نمي اليَّ يومئذٍ قوله في هذه المجالس — ما اسمى همة هذا الغلام . وما احسن تحصيله . غلام في سن العشرين يسهر الليالي يواصل المساء بالصباح وهو يكتب في علم الاصول ويناقش علمائه . فتعريضه بي في حضرتي وثناؤه عليَّ في غيبتي ضرب من ضروب التنشيط المختلفة الانواع المتحدة الغاية لاجل العمل لئلا تعتاد النفوس على الكسل

وصفوة القول انه كان من اعظم اركان النهضة العلمية . والحركة الفكرية في البلاد السورية خصوصاً دمشق . ولا اكون مغرقاً اذا قلت ان المدرسة العبدلية (عبد الله باشا) التي كانت عرينه يأوي اليها هو وتلامذته واصحابه هي المنجم الذي نجم عنه هذا المعدن . والمشرق الذي اشرقت منه هذه الانوار . والمثار الذي ابتدأت منه ثورة الافكار منذ ربع قرن . في هذه الربوع والاقطار .

مؤلفاته في دوري كهولته وشيخوخته

اما مؤلفاته التي على حساب دوري كهولته وشيخوخته من ادوار حياته فكثيرة غزيرة منها ما طبع ومنها ما كان تحت الطبع حين وافته المنون ومنها الذي لما يطبع وهي (تفسير القرآن الحكيم) ينتظم في بضعة مجلدات ومقدمته (كتاب البيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريقة الاتقان) ذكر انه المقدمة الصغرى من مقدمتي التفسير طبع حديثاً (الالمام باصول سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام) (مقاصد الشرع) (امثال العرب) (التقريب الى اصول التعريب) (مقدمة لكتابه معجم اللغة) (امنية الالمعي) (شرح خطب ابن نباته) (توجيه النظر) الذي سبق الكلام عليه (كتاب في التعليم الابتدائي) من مبتكراته بناه على سعة اختباره غير مقلد به احداً من علماء البيداغوجيا . وغير ذلك مما لم تحضرني معرفته عدا مجموعاته المعروفة بالكناشات التي اودعها خلاصة ما اطلع عليه من كتب العلم والادب والتاريخ . وكم من الكتب والصحف والمجلات طبعت وانتشرت بسعيه ومؤازرته وتنشيطه . واسلوب كتابته في التأليف مبني على التسهيل والتقريب بدون تكلف او تفصح

فهذه آثار استاذنا الجزائري الطاهر وتلك اعماله الباقيات الصالحات التي نسقتها عَلَى قدر مابلغ اليه جهدي · واتصلت به خبرتي · وربما اغفلت كثيراً مما لم تحط به خبراً معرفتي · والاحاطة لله تعالى وحده فهو العليم الخبير المحيط · وحيث انتهيت من نشر فضائله ابتدئ مثنياً بارداف فضائله انجازاً للوعد · واتماماً للقصد وهاك البيان ·

فضائله

لايخفى ان نشر فواضله يستلزم بالضرورة ثبوت فضائله لما بينهما من نسبة العموم والخصوص المطلق فلا يمكن ان يتصور العقل ان يكون صاحب هذه الفواضل من آثار واعمال جاهلاً او غبياً او سافل الاخلاق اذ لا يصدر الصحيح من المعتل · ولا يستقيم الاعوج بمختل · وما بيان الفضائل الا من قبيل التصريح بما ثبت عقلاً بدلالة اللزوم اسعافاً لرغائب النفوس اذ من شأنها ان تشرأب للاشراف عَلَى تفصيل مجمل الفضائل بعد ان اشرفت عَلَى تلك الفواضل واغتبطت بها واعجبت بصاحبها · ولا ريب ان من كانت هذه آثاره فهو البحر المحيط والعلم الشامخ ·

فقد كان : بوأه الله حظيرة قدسه : من نوابغ الرجال الذين زدان بهم الزمان وافتخر . قلَّ من يدانيه من معاصريه باحاطته وسعة اطلاعه . جمع بين المعقول والمنقول . ومزج القديم بالحديث خذ من كل علم لبابه ونبذ لفاظته فكنت تجد منه العالم الديني والمدني والرياضي والطبيعي والسياسي والاديب والمؤرخ والاثري والاجتماعي والاخلاقي والكاتب والشاعر . فكان عنده من كل علم خبر . وله في كل وادٍ اثر فهو دائرة المعارف . ومفتاح العلوم وكشاف مصطلحات الفنون . وقاموس الاعلام .

تحصيله العلوم

تلقى الفقيد مبادئ العلوم من علماء ذلك العصر حتى اتصل باستاذه الخاص الشيخ عبد الغني (١) الغنيمي الشهير بالميداني شارح

(١) جاء في طبقات صديقنا المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي . انه الشيخ عبد الغني بن طالب بن حمادة الغنيمي الشهير بالميداني ولد بدمشق واخذ عن فضلائها كامام المحدثين الشيخ عبد الرحمن الكزبري والفقيه الشهير السيد محمد امين عابدين والعالم النحرير الشيخ حسن البيطار وكان جل انتفاعه منه اشتهر بالفقه وتفوق به وصنف مصنفات حسنة ورسائل كثيرة وكان حسن السمت رضي السيرة معتقداً بين الناس خصوصاً في محلته حي الميدان ولم يزل على طريقته المثلى الى ان توفاه الله تعالى سنة ١٢٩٨

كتاب القدوري وكثيراً ما سمعت الفقيد يطريه ويثني عليه بانه من العلماء المحققين الواقفين على لباب الشريعة واسرارها . البعيدين عن البدع والخرافات . واخبرني انه حينما حضر عنده التلويح للسعد التفتازاني على توضيح التنقيح لصدر الشريعة في اصول الفقه وجد منه تحقيقاً يعرب عن غزارة علمه وارتقاء فكره غير انه كان يوثر الخمول على حب الشهرة والظهور فلا يرغب في المناقشة والتفصح في المجالس الحافلة . ولكنه اذا سئل على انفراد عن عويصات المسائل تجد منه حلال المعضلات وكشاف الاستار عن الاسرار فلزمه الفقيد وتلقى منه ما تلقى حتى تخرج به . كما انه تلقى العلوم الطبيعية والرياضية من علمائها كنوابغ خريجي المدرسة الحربية وغيرهم وعكف على دراسة اللغات الشرقية فكان يجيد التركية والفارسية وينظم الشعر بها . ويعرف من العبرانية والسريانية والحبشية كل ماله علاقة بالعربية من المفردات والاوضاع ويقرأ الاحرف الافرنسية واليونانية والرومانية . اما تضلعه باللغة العربية

هجريه ودفن بمقبرة القبيبات رحمه الله تعالى انتهى اقول جميع موءلفاته في الشريعة كالفقه والكلام ونحوها والخلاصة انه من فقهاء الشام وعلمائها الاعلام اه موءلف

وادبياتها فقد كان على جانب عظيم ولا بدع بان ينعت بانه لسان العرب وخزانة الادب . وكان له القدح المعلى في معرفة الآثار والخطوط الشرقية . وحل رموزها ومشكلاتها ووقوفه على اكثر لغاتها

اسلوبه في التعليم والارشاد

لم يكن نهج الفقيد كغيره من علماء عصره في تعليم الطلاب بالالقاء او الكراس . او بالتدريس او التحليق في المساجد كالمدرسين والواعظين . بل كان يعلم من يؤانس منهم النبل والنجابة ويتفرس فيهم نصوع الطوية باسلوب لا كلفة فيه اثناء المحادثة والمسامرة . وكان يحتال على ارباب الصلابة منهم فيلقنهم مبادئه ويلقح عقولهم بافكاره من حيث لا يشعرون . وكثيراً ما كان يغشى مجالس بعض العلماء الذين يتوسم فيهم صفاء السريرة ويظهر بمظهر المستفيد وغايته افادتهم ضمناً في خلال الدرس والبحث . لتنتشر افكاره بطريق السراية من الاساتذة الى التلامذة . فلهذا يسوغ ان نعتبر ان اغلب المتعلمين والمتأدبين من الباحثين والكتاب في القطر السوري عيال عليه وان لم يتلقوا منه مباشرة . وكان حريصاً على الحكمة فلا يضعها في غير موضعها . غيوراً على العلم

فلا يضيعه بمنحة الجهال كما انه لا يظلم المستوجبين بحرمانهم بل يمنح كل طالب عَلَى قدر قابليته الفطرية واستحقاقه الطبيعي فهو اشبه بفلاح خبير بالزراعة سبر الارض وفرّق بين السبخة والصالحة للانبات وعرف قابلية كل قطعة لانبات البذار الذي يصلح لها فلا يضيع بذاره في الارض السبخة كما انه لا يبذر بارض بذاراً لا تصلح له ويمنعها مما تصلح له بل يبذر كل نوع بما يصلح له

وقد سمعته غير مرة يقول لا يسوغ لاستاذ ان يجتبي تلميذاً ويتخذه موضع ثقته قبل ان يختبره مدة من الزمان. وكان له نظرة عجيبة في الرجال فيعرف من ينبغي ان ينتقي ليصطحب ومن ينبغي ان ينقى لينبذ. ومن النادر ان تخيب فراسته بانسان او يتخلف حكمه عليه فكان يصد ارباب الرعونة او التشهي او الذين ينهمكون بمشكلات المسائل وعويصات المباحث قبل ان يتمكنوا من ادراك مبادئها اذا باحثوه او ناقشوه او استطلعوا رأيه ويعرض عنهم وربما انّب بعضهم حتى حكموا عليه بالضنة بالعلم والبخل بالافادة. والحقيقة انه كان يمنح الطلاب عَلَى حسب استعدادهم ويخاطب الناس عَلَى قدر عقولهم. ولو كان ضنيناً بالافادة كما افتئتوا عليه لاراح نفسه من عناء الكد والجد وسهر الليالي في التصنيف

والتنقيح والدعاية الى العلم والادب والاخلاق . وكان نهجه في التعليم قصر طريق العلم عَلَى المتعلم والاقتصار عَلَى لباب العلم دون التعمق بما لا يفيد والاخذ بالتدريج من البسائط الى المركبات لتكون طرق العلم معبدة لكل سالك وابوابه مفتوحة لكل طارق لذلك انتفع بصحبته كثير من العامة من ارباب الذكاء الفطري الذين لم يمارسوا الدرس والبحث عَلَى الاصول بالتلقي من الاساتذة وهم الذين يدعون بنبلاء العوام ولهم اليد الطولى في افادة العامة وربما فاقت افادة كثير من العلماء لان هؤلاء النبلاء من العوام يخاطبون الناس بلسانهم .

وبالاجمال انه كان في دوري كهولته وشيخوخته داعية اصلاح وملقح افكار . ومثقف عقول . ومهذب اخلاق . ومؤلف مصنفات . وعلم هداية الى نفائس الكتب . وحلال مشكلات وملقن اصول وكليات . اكثر منه معلم تلامذة . ومدرس طلاب يقرئ الكتب ويلقي الدروس . ويلقن الفروع والجزئيات . لان هذه الوظائف قائم باعبائها اغلب علماء عصره وقطره عَلَى قدر الامكان . اما تلك الوظائف فلم نجد من تخصص للقيام بأودها مثل قيامه في محيطنا وكل ميسر لما خلق له . فمن تمكن من قواعد العلوم

وتضلع بمنطوقها والمفهوم واتيح له ملازمة الفقيد ملازمة علمية ينتفع بصحبته نفعاً لامزيد عليه لانه مجموعة الفوائد ·

آراؤه واطواره

كان يرى انه ينبغي اولاً عَلَى الخلف احياء ما تركه السلف والسعي وراء تهذيبه وتقريبه من الاذهان ليسهل تناوله باقرب أَوان · ثم تعريب العلم الحديث عن امم الحضارة · ثم مزج القديم بالحديث والتوفيق بينهما لئلا نضيع ميراث آبائنا ولانحرم من مناهل جيراننا ·!

ويرى انه ينبغي ان لايحرم الناس من نعمة العلم عَلَى اختلاف شعوبهم ومللهم ونحلهم لـكن ينبغي ان يمنح كل انسان عَلَى قدر أهليته ·

ويرى ان العلم انشودة المتعلم اينما وجده تعلمه كما ان الحكمة ضالة المؤمن اينما وجدها التقطها لهذا كان يرى التسامح مع اهل الملل والنحل للاستفادة والافادة فيصاحب جميع علماء الفرق ويجالس المطران والحاخام وشيخ العقل ومقدم النصيرية ومجتهد الشيعة مثل ما يجالس أمام السنية والمفتي والفقيه والصوفي ·

ويناقشهم ضمن دائرة آداب البحث ويفيدهم ويستفيد منهم وربما عدل مشرب الغلاة منهم بحكمة المناظرة او الدلالة عَلَى الكتب التي من شأنها تخفيف غلوهم . اخبرني مرة عقب قدومه من اطراف سورية انه قال لبعض رؤساء الفرق الاسلامية = ان خطورة الموقف وضيق الوقت لا يفسحان مجالاً للاقدام عَلَى كل عمل بل يقتضيان تقديم الأهم عَلَى المهم فتعالوا نقدم عَلَى المتفق عليه ونوحد دعوتنا اليه . ونرجيء الآن المختلف فيه ونذر المناقشة به فالصدق مثلاً متفق عَلَى حسنه والكذب متفق عَلَى قبحه فهلم ندع الى اتباع الصدق واجتناب الكذب فاذا عملت الامة بما يجب واقلعت عما يحرم من المتفق عليه ايجابا وتحريماً او حسناً وقبحاً وفرغنا من الدعوة الى جميع انواع المتفق عليه ننتقل حينئذٍ الى البحث بالمختلف به = ثم قال لي ومتى وصلت الامة الى ذلك لم يبق ثمة اختلاف .

ويرى ان النهضة في الشرق لا تفلح ما لم يكن رائدها العلم الصحيح والاخلاق الفاضلة . والمبادئ السامية . ويرى ان الاصلاح عَلَى اختلاف انواعه لا بد ان يكون عَلَى سبيل التدريج وفقاً لمقتضى السنن الطبيعية لأن ما يأتي عَلَى جناح السرعة لا يلبث أن يرجع من حيث اتى . وان الامم التي تنال ما فوق

استحقاقها الطبيعي تعرض نفسها الى الخطر . (ومن آرائه) انه يجب عَلَى علماء الدين لا سيما بعد ان اختلست اوقافهم وغصبت وظائفهم ان يتعلموا بعض الصناعات ليستغنوا بها عن اعتاب الملوك وابواب الامراء والاغنياء صيانة لدينهم وحفظاً لكرامتهم ليتمكنوا من القيام باعباء وظيفة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

ولهذا كان من اطواره الامتعاض من التزلف للحكام . وبغض كل من يتزلف لهم من علماء السوء الذين يبغون الدنيا بالدين . ويذهبون ثلثي دينهم بالتواضع للاغنياء لاجل غناهم ويذهبون الثلث الباقي بعد ان تعول القسمة في التزلف للحكام والخضوع لهم والركوع بين ايديهم خصوصاً اذا كانوا يثلمون ثلمة في الدين بالفتاوى الملفقة والآراء الواهنة والحيل الفارغة التي لا تنطلي عَلَى علام الغيوب مصانعة لبعض الحكام الغاشمين وترويجاً لاربهم و يفادون بالمصالح العامة وجميع مرافق الخير العام

---

(١) ايماء الى الحديث الشريف من تواضع لغني لاجل غناه ذهب ثلثا دينه . رواه البيهقي في الشعب وهو وان كان واهي السند لكن مضمونه معقول فيما اذا حمل عَلَى المداهنة لانها تذهب بالمروءة كما في رواية ابن مسعود ذهب ثلثا مروءته ومن لا مروءة له لا كمال في دينه خصوصاً اذا صدر ذلك عن العلماء اهـ مؤلف

في سبيل منافعهم الخاصة . وهؤلاء فضلاً عن كونهم يبوؤن بغضب من الله ورسوله و يسجلون عَلَى انفسهم الخزي والعار فانهم يسقطون في نظر الحكام انفسهم . و برهاننا عَلَى ذلك كثير من الوقائع التاريخية الغابرة . والحوادث المصرية الحاضرة . كيف لا والله تعالى يقول (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) و يقول (ومن يهن الله فما له من مكرم) صدق الله العظيم .

اما الدجالون الذين يلبسون عَلَى العامة والحكام انهم من العلماء الاعلام ولا اثر للعلم عندهم الا بالشعار والدثار واغتصاب وظائف العلماء وارفاقهم فنصيبهم من العلم والاخلاق نصيب الظلام من النور والظلم من العدل فهم هياكل فارغة من كل شيء سوى قذر الرعونة وصديد الانانية ونتن خبث الطوية ويرون انهم فوق جميع الطبقات و يزعمون بانفسهم الكفاءة لاعظم الوظائف واسمى المنازل وارفع المكانات وهم في نظر العلماء والحكماء اقل من الهباء لان غرفتهم في وطن النهي فارغة

(ومن جهلت نفسه قدره   رأى غيره منه مالا يرى

وقد انظهم العهد الحميدي والعهد الاتحادي في اواخر الايام التركية لذة الوظائف المغصوبة والرتب الكذابة والاوسمة الخلابة

فاستحال عليهم الفطام فصاروا يلبسون لكل دور لباسه . و يتذرعون بانواع الذرائع احتفاظاً بوظائفهم الكاذبة وجاههم الكاذب فتراهم سادة وزعماء و كبراء في جميع انقلاباتنا السياسية لانهم سرعان ما يتلونون كالحرباء وهذا شأن طبيعي من شؤون فاقدي المبادئ السامية وعباد القوة والمنافع . ولا يمكن ان يقضي عَلَى نفوذهم الضار القضاء الاخير الا بالانقلاب الاجتماعي الفكري حينما تبلغ الامة رشدها بالعلم والاخلاق واستنارة الافكار فتعرف عدوها من صديقها بالتفرقة بين العالم والجاهل والفاضل والسافل والحالي والعاطل

و كان امثال الفقيد لا يعتبرون امثال هؤلاء في عداد الانعام الحوامل والعوامل اذ ينتفع بحملها وعملها . وشعرها وو برها ولبنها ودرها . واما هؤلاء فحشرات لاسعة ووحوش ضارية لهم انياب الافاعي وحمات العقارب ونمر الذئاب وشره الكلاب ومكر الثعالب وهم اشد خطراً عَلَى الاسلام واكبر ضرراً عَلَى المسلمين من جميع اعداء الاسلام والمسلمين لانهم دجالون دأبهم دس السم بالدسم ومقاومة كل اصلاح ومناهضة المصلحين بدعوى الدفاع عن الدين وهم يحاربونه و يتجرون به وقد ورد (غير الدجال اخوف عَلَى

امتي من الدجال) الحديث (١) وحسبهم محاربة له تلبيسهم بادثار لباس علمائه ودعواهم الكاذبة انهم من علمائه وحملته وهم جاهلون بوسائله ومقاصده . واذا كانت دعوى العالم الصادقة محظورة في الشرع لما ينجم عنها من العجب والانانية فما بالك بتبجح الجاهل ودعواه الكاذبة . واذا كانت احقر مهنة في المجتمع لا يقدر ان يدعي معرفتها الجاهل بها فكيف بصناعة العلوم الشرعية التي هي اشرف الصناعات يدعيها الجهال ويحتكرون وظائفها الرفيعة ولا ريب ان هذا من الغرابة بمكان واغرب منه سكوت العلماء عنهم . سمعت رجلين من اهل العلم يقول احدهما للآخر أليس من سعة صدرنا ولين جانبنا عدم تعرضنا بالامثلة العلمية لادعياء العلم المتعممين خشية فضيحتهم في المحافل والمجالس التي يتصدرون بها

فاجابه كلا : بل من سوء تربيتنا ونفاقنا وقلة ديننا لانه اغضاب للخالق في سبيل مرضاة المخلوق ألم تعلم ان هذه الطغمة من اعظم الاسباب الباعثة على اضاعة الدين واهانة اهله ؟

وحق ما قاله : قال السيد عبد الرحمن الكواكبي رحمه الله (وعندي

---

(١) خرج هذا الحديث الشريف السيوطي في الجامع الصغير عن الامام احمد بن حنبل في مسنده عن ابي ذر واشار الى صحته اهـ مؤلف

ان داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين وبعبارة اخرى تحت ولاية الجهلة المتعممين) وقال في موضع آخر بشأن العلماء المتملقين الذين يتصاغرون لدى الحكام ويتذللون لهم ويحرفون احكام الدين ليوفقوها على اهواء الظالمين وأهوائهم (فماذا يرجى من علماء يشترون بدينهم دنياهم ويقبلون يد الامير تتقبل العامة ايديهم ويحقرون انفسهم للعظماء ليتعاظموا على الوف من الضعفاء اكبر همهم التحاسد والتباغض والتخاذل والتفاشل لا يحسنون امراً من الامور حتى ولا الخصومة فتراهم لا يتراغمون الا بتكفير بعضهم بعضاً عند الامراء والعامة الى ان يقول :(فلا شك ان في هذا الزمان افضل الجهاد في الله الحط من كرامة العلماء المنافقين عند العامة وتحويل وجهتهم لاحترام العلماء العاملين) يريد بهم المخلصين الآمرين (١) بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا تأخذهم بالله لومة لائم يجاهرون بالحق لدى الحكام بانفة وشمم واباء ونوع من الغلظة التي لا بد منها عند اقتضاء الحال ولولاها لضاع

(١) اما اذا لم يكن الاخلاص رائدهم بل يتجرون ايضاً بمجاهرة بالحق والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا تنفذ اقوالهم الى اعماق القلوب ولما كان الاخلاص خفياً لكونه من اعمال القلوب كان عنوانه المفاداه بالمنافع الخاصة من مال اوجاه في سبيل المصالح العامة واحقاق الحق اه مؤلف

الدين واني لنا بمثل هؤلاء وقليل ماهم . على ان هؤلاء يعوزهم ايضاً لتثقيف عقولهم واستنارة افكارهم دراسة الحكمة النظرية والفلسفة العقلية والوقوف على العلوم الاجتماعية ومعرفة مقتضيات الزمان والعمران ليكونوا علماء وحكماء حتى يأتي على ايديهم العمل المطلوب ليقضوا على العلماء الرسميين والدجالين المنافقين وان كان على مايظهر ان نجم سعودهم اخذ بالافول . وان طالعهم بدأ يتحول الى النحوس . وبدت عليهم علائم السقوط . وطفق ظل نفوذهم يتقلص . ومكانتهم الفارغة تتزلزل عند العامة فضلاً عن الخاصة بفضل حرية القول والنشر منذ عهد الانقلاب العثماني خصوصاً بما جنته ايديهم واقترفوه اثناء الحرب العامة من الدعوة الى ترويج المظالم وتحبيذها والخضوع للظالم (١) السفاح والركوع امامه وتقبيل يديه الملطخة بدماء الابرياء . ومداهنته بالاماديح والثناء بمقابل مايصبه في افواههم من سبائك اللجين والنضار ومايرصع به صدورهم من الاوسمة وقصب الرتب البراق . وما يملأ بطونهم التي لم تشبع

---

(١) المراد به جمال باشا التركي السفاح الذي كان على يديه وايدي اخوانه من طغاة جمعية الاتحاد والترقي القضاء على عظمة الدولة العثمانية عليهم من والله مايستحقن

وان تشبع من انواع الميرة حينما كان الناس يموتون جوعاً في الطرقات العامة مع فرط قحتهم وسرعة تقلبهم فانهم بعد ان يكونوا دائبين علَى التسبيح بحمد الظالم ولمز خصومه بكل غميزة من لواذع القول ويشيعوه بالعويل وزرف العبرات اذا فصل عنهم صباحاً يستقبلون عدوه القادم مساء بالبشر والترحاب ويعكسون القضية مدحاً للقادم وقدحاً علَى الظاعن في يوم واحد وهلم جرا . وعندي ان كل سلطة تضع يدها بايديهم وتصغي لآرائهم تكون خاسرة الصفقة لانهم لا يدلون بها الا الى مواطن الخراب . (١) وصديقك من صدقك لا من صدّقك

لهذا كان فقيدنا يفر من امثال هؤلاء فرار السليم من الاجرب ويحذر خاصته من الدنو منهم لاعتقاده بتعذر برئهم لان من جرب المجربات حلت به الندامة . وقد عاف شمارهم وتزيا بازياء السوقة واخلاط العامة اشمئزازاً من هؤلاء الدجالين . وايثاراً للخمول علَى

(١) لا اعني احداً بعينه ولا داعي الى تعيينهم وحسبهم انهم يعرفون انفسهم بانفسهم والعلامة الفارقة بينهم وبين غيرهم ان من امتعض من التصريح بهذه الحقائق الصادعة بالحق فهو منهم ومن ثلج صدره لها فليس منهم وكل امرئ بما كسب رهين

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وان خالتها تخفى على الناس تعلم

فكيف اذا كان العمل على رؤس الاشهاد اه مؤلف

الشهرة التي تبعته بالرغم عن ابتعاده عنها لان هيبة العلم ودلائل الفضل لاتخفى عَلَى اصحاب الاذواق السليمة كما لايخفى عبق المسك عَلَى اصحاب الشم السليم ·

كما كان ينفر ايضاً من طبقة المتمجدين الذين لانقل اعمالهم عن اعمال هؤلاء وهم اصحاب الجاه الكاذب والمجد الفارغ الذين يتمجدون بالعظم الرميم · او الثروة المكونة من السلب والنهب او السحت والشح والربا · او اختلاس الاوقاف واقتطاع الاراضي · او يفاخرون بالرتب والاوسمة المشتراة بابهظ الاثمان او باقبح الوسائل ·

(اذا لم يكن صنع الفتى زينة له   فليس يحليه الوسام المرصع)
(ولا رتبة البالا[١] ترفع شأنه   اذا لم يكن في فعله ما يرفع)

كما كان ينقم عَلَى من كان عَلَى شاكلة هؤلاء من ابنائهم الذين تربوا عَلَى احضان الحظيات وتلقنوا خرافاتهن ثم ترعرعوا بين الخدم وتطبعوا بطباعهم وحينما يبلغون اشدهم يرتعون في مراتع الفسق ومواخر الفجور ويبددون ثروتهم الموروثة في سبيل البذخ

---

(١) رتبة البالا من رتب الدولة العثمانية وهي دون الوزارة وفوق رتبة بيكلربك في اصطلاحهم والبيتان للسيد جميل صدقي الزهاوي البغدادي اهـ مؤلف

والسفه واليسر بدون تعلم ولا تهذب ولسان حالهم يقول نحن السادة والرؤساء وما بقية الناس الا عبيد وخدم نأكل على رؤوسهم بالطبق . عَلَى حين انهم وآباءهم عاطلون من جميع انواع المجد الحقيقي كمجد القربة والتقوى . او مجد العلم و الفضيلة . او مجد السماحة والكرم . او مجد النبالة والشمم . وهو الذي يأتي صاحبه بعظائم الاعمال التي تخلد في بطون التواريخ . فامثال هذه الطبقة من اكابر المجرمين هم وابناءهم لا حرمة لهم في القلوب حين حياتهم ولا يؤسف عليهم حين موتهم ولكن العامة تجاملهم اضطراراً لدفع ضررهم ودرئ شرهم . وبهذه المناسبة اذكر ابياتاً نقلها الشهاب احمد المنيني في كتابه الاعلام بفضائل الشام لا بأس من ايرادها استطراداً واحماضاً وهي :

(اذا شئت ان تبكي فقيداً من الورى
وتندبه بعد النبي المعظم)
(فلا تبكين الا عَلَى فقد عالم
يبالغ في التفهيم للمتعلم)
(وفقد مليك عادل حاز ملكه
بآثار نور العدل لا بالتحكم)

(وفقد شجاع مخلص في جهاده
قد انتشرت اعلامه بالتقدم)
(وفقد كريم لا يمل من العطا
يفرج هم العسر عن كل معدم)
(وفقد ولي صالح صادق التقى
مطيع لرب العالمين مسلم)
(فهم خمسة يبكون حقاً وغيرهم
الى حيث ألقت رحلها ام قشعم)

ولم يكن انكار الفقيد على الجهلة من ابناء المترفين اقل من انكاره على بعض المتعلمين من خريجي المدارس العالية سواء كانت اميرية او اجنبية الذين تذوقوا قليلاً من العلم ولم تهذبهم الاخلاق فعادوا مارقين من دينهم . مستهزئين بتقاليد محيطهم الحسنة . متعجرفين على ابويهم وابناء وطنهم . يحصون على الناس سيئاتهم . وحينما جربوا في الوظائف ظهر انهم سماسرة اقوال لا مقدرة لديهم ولا كفائة ولا نزاهة ولا اخلاق . وكثير منهم يتجر بالوطنية ويندمج بالاحزاب السياسية لدفع مغرم اوجر مغنم وتسنم وظيفة واكتساب نفوذ وجاه . ويرون جميع المتعلمين الذين لم يشربوا

من مشربهم . ولم تسمح لهم المقادير ان يتخرجوا بمدارسهم جهلاء ينظرون اليهم شزراً بعين الازدراء عَلَى ان البعض منهم اجوف لا يفقه شيئاً سوى انه ذهب الى المدرسة بجهل بسيط وعاد بجهل مركب متأبطاً شهادته من مدرسته العالية زاعماً ان الاحراز عليها يغني عن كل شيء عَلَى حين ان شهادة الانسان الحقيقية هي قابليته الفطرية واستعداده العلمي وتفوقه عَلَى الاقران . والظاهر انهم يحرزون هذه الشهادات المزورة بقوة الشفاعة والعناية . او بسرد الالفاظ المحشدة في الحافظة بدون فهم معانيها . والعلم ملكة وفهم . لا استظهار الفاظ بدون ادراك معانيها . جاء في كتاب التربية الحديثة لأدمون ديمولان الافرنسي ماملخصه: (ان معلماً طلب لمدرسة انكليزية فأتى بشهادات كثيرة ملتفة تشهد بحسن كفاءته وصار يعرضها عَلَى ناظر المدرسة فقاطعه بصوت باش ملؤه الحكمة والرزانة بقوله : اني لا اريد شهادات بل اريد رجلاً اه) فهذا سر تقدمهم وتقهقرنا وجاء به ما خلاصته ايضاً : (ان احدى كليات الانكليز طلبت من فرنسا معلم لغة افرنسية وشرطت له شروطاً عديدة منها ان يكون مسيحياً ثم قالت ومعنى كونه مسيحياً انه يمثل باعماله واقواله وافكاره الحقائق الادبية

المنقولة عن المسيح) اهـ . قلت فيا عجباً لماذا لم يكن احتفاظ الانكليز بآداب سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام عقبة في سبيل ارتقائهم الى مصاف الامم الحية ومستوى الدول المعظمة ويكون احتفاظنا بآداب شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حجر عثرة في سبيل ارتقائنا وتمدننا كما يزعم هؤلاء الزائغون بعض خريجي المدارس العالية من ابنائنا . سبحانك اللهم ما هذا الجهل الظاهر والضلال المبين ؟!! .

ومن اطوار الفقيد انه كان يحب ان يذكر كل محسن باحسانه وكل مسيء بأساءته من اي جنس كان او من اي دين بدون تشيع ولا تعصب . وان تعرف كل امة بما لها وما عليها فلا يبخس حقوق امة بطي حسناتها لكونها من غير شعبه او ديانته كما لا يتسامح مع امة لكونها من ارومته وعلى مذهبه بطي سيئاتها والاطراء باكثر مما تستحق فكان على فرط محبته لقومه لا يحط من قدر غيرهم فكان يمدح التربية التركية وآداب الاتراك ورقة شمائلهم وان كان غير راض عن حكومتهم كما سيأتي .

وكان من اكبر المعجبين بالامة الانكليزية السكسونية بتربيتها وكثير من خصائصها حتى سياسة ساستها . وكان حسن

الظن بوعودهم ومواعيدهم . ومن الغريب ان اغلب ما كنا نسمعه منه عن خصائص هذه الامة وجدناه فيما بعد في كتاب سر تقدم الانكليز تأليف اديمون ديمولان الافرنسي الذي عرّبه احمد فتحي باشا زغلول عَلَى حين انه لم يكن وقتئذ بارزاً الى عالم الطباعة والظهور .

فلا ريب ان هذا ناشيءٌ عن تتبعه احوال الامم ومعرفته بطبائعها وسعة اطلاعه على تواريخها .

ومن اطواره انه لا يحب ان يحمل احداً عَلَى تقليده كما انه لا يحب ان يحمله احد على تقليد غيره . وقد نبذ التقليد [1] الضار في جميع شؤونه فكانت اعماله في جميع ادواره صورة من صور الابداع والاختراع فلقي من المقاومــة والمناهضة ما يلاقيه كل مجدد من ارباب الاحتفاظ بالقــديم وبقائه عَلَى قدمه . لكنه تغلب بثباته وحزمه وقوة ارادته ومضاء عزيمته عَلَى المصــاعب والعقبات فسهل الحزون ومهد الطرق لكل سالك .

***

(١) قال الاستاذ الشيخ محمد عبده ان التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل . وكما يكون في النافع يحصل في الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان . ولا تجمل بحال الانسان . اه مؤلف

احواله واخلاقه

كان لا يذر مزاولة العلم في كل وقت وحين ما بين تصنيف وتنقيح ، او بحث وتنقيب . او مذاكرة ومطالعة . واذا استحسن كتاباً يعاود مطالعته مراراً عديدة . وكان شديد الثبات آية في سمو الهمة والنشاط لا يعرف الملل ولا الكسل ولا اليأس . فلا ينتقل من مشروع الى آخر حتى يتم الاول . ولا يؤخر عمل اليوم الى الغد . واذا عقد النية على الاتيان بمشروع مستطاع امضاه ولا يدعه حتى يتمهُ مهما حالت دونه المصاعب والمتاعب . وكان لقوة ارادته وشجاعته الادبية لا يبالي بالاحداث والرزايا . ويخفف ويلاتها على المصابين باحسن اساليب العزاء . ويشجع جلسائه على اقتحام المصاعب . واحتقار المصائب مهما عظمت ويغرس في قلوبهم طول الامل والانصراف الى العمل . قل ان جالسه حزين الا وسري عنه . او يائس الا ونشط من عقاله بالامل والنشاط لذلك كان يدعى بين اصحابه بمبدد الهموم ومحيي الهمم .

وكان احب شيء اليه الاطلاق . وابغض شيء عليه التقييد فلهذا لم ينتظم في سلك حزب من الاحزاب السياسية . او جمعية

من عموم الجمعيات عَلَى اختلاف اشكالها ومقاصدها . كما انه لم يدخل طريقة من طرق مشايخ الصوفية لكن قلبه كان مع كل فريق من اهل الخير يود للناس الخير فكأنه داخل معهم بدون ان يقطع لهم عهداً عَلَى نفسه لان العهد عنده أمر عظيم يجب الوفاء به بخلاف الذين ينخرطون في الاحزاب او الجمعيات تشهياً او استكشافاً او تسلقاً لبلوغ ارب فاذا بلغوا امنيتهم او قنطوا من بلوغها انقلبوا عَلَى اعقابهم ناكثين لعهودهم حانثين بايمانهم لهذا كان يأمنه رؤساء الاحزاب ومشايخ الطرق ويثقون به اكثر من ثقتهم بكثير من اخوانهم . ويكاشفونه باسرارهم واعمالهم فيرشدهم بآرائه ويمحضهم النصح وينشطهم ويشد ازرهم .

وكان بعيداً عن التنطع والتشدد في الدين والورع البارد الذي ما انزل الله به من سلطان فيحب ان توءتى العزائم في مواطنها والرخص في مواقعها . وان يوفى للدنيا حقها وللآخرة حقها .

وكان بعيداً عن الغطرسة والعجرفة والفخفخة والعظمة كثير التواضع . يحب المساكين ويلبس لباسهم ويصحبهم ويغشى مجالسهم ويأوي الى منازلهم . ويتأبى عَلَى الحكام الظالمين . وكل مختال فخور من المتمجدين والعلماء المنافقين ويعرض عنهم وربما

احتقرهم وصدهم . نعم كان يصحب بعض اوليـاء الامور واهل الحل والعقد و بعض السراة والاعيان اذا كان بينه و بينهم وشيجة العلم ولحمة الادب وتقارب في المشرب تبادلاً بالفائدة الادبية مع تصلبه بمشربه وحرصه عَلَى مبادئه وتوسعهم به .

وكان عَلَى جانب عظيم من التصلب باخلاقه ومبادئه لكونه عصبي المزاج فلا يتساهل بشيء منهـا حتى مع الملوك والامراء لذلك قل الثابتون عَلَى صحبته الصابرون عَلَى صلابته الا اذا كان بينه و بينهم تقارب في المزاج والمشرب مع هذا كان اشدة دهائه يحسن التصرف مع اصحاب القوى والقدر تفادياً من بطشهم . بل ربمـا حول بحذقه قوتهم البطـاشة الى قوة منفذة للمشاريع النافعة . وقد سمعت منهُ غير مرة ان كل من يقاوم من هو اقوى منه نفوذاً وسلطاناً بلسانه او قلمه مقاومة تجاوز حـد الاعتدال فهو متهور يطيش سهمه و يجلب عَلَى امته المضرة من حيث يروم لها المنفعةواوصاني وهو في مدينة حماه ان أُبلغ الاصحاب في دمشق ان يعتدلوا مع الولاة ليستفيدوا من قوتهم لبلوغ مقاصدهم الخيرية بدلاً من ان يستهدفوا انفسهم لها . ثم قال ولئن قالوا كيف يتسنى لنـا الاتفاق مع امثال هؤلاء الولاة مع اختلاف

المشارب وتباين المقاصد . نقول : سبحان الله . اذا كان الولاة عمريين في مشاربهم فلا حاجة حينئذ بكم والامة تكون في غنى عن امثالكم . وان حسن البلاء في الجهاد المنبعث عن الحكمة وسداد الرأي يتجلى اثره في هذه المواطن التي تمنى بامثال هؤلاء الولاة والحكام . ثم طلب اليهم المثابرة على العمل والثبات على الامل بدون يأس وملل مهما تفاقم الضغط واشتدت المراقبة وازدادت المقاومة .

وكان يتسامح بمجالسة اهل الزيغ والشبه ويذاكرهم . وربما ثقف اعوجاجهم واقنعهم في درئ شبههم . لكنه لايتسامح معهم بالطعن على احد او التعريض به خصوصاً اذا كان من أئمة السلف العظام والعلماء الاعلام . او خلفاء المسلمين الكرام الذين يجب احترامهم لحسن بلائهم في خدمة المسلمين والاسلام .

وكان على فلسفته وتسامحه صلباً في دينه لم يعهد عليه منكر ولم تؤثر عنه فاحشة او لهو منذ نشأته الى وفاته . ولو عثر له حساده واعداؤه على سقطة من هذا القبيل لطاروا بها فرحاً ليشيعوها و يذيعوها ويسجلوها و يدونوها . ولما اضطروا الى اتهامه

بالمروق والزندقة كما هو (١) شأنهم مع كل مصلح مجدد .

(١) قال امامنا الغزالي في مقدمة كتابه فيصل التفرقة (اما بعد) فاني رأيتك ايها الاخ المشفق والصديق المتعصب موغر الصدر . منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في اسرار معاملات الدين . وزعمهم ان فيها مايخالف مذهب الاصحاب المتقدمين . والمشايخ المتكلمين . وان العدول عن مذهب الاشعري ولو في قيد شبر كفر . ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر . فهون ايها الاخ المشفق المتعصب على نفسك . لاتضيق به صدرك . وفل من غربك قليلاً . واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلاً . واستحقر من لا يحسد ولا يُقذف . واستصغر من بالكفر او الضلال لا يُعرف . فاي داع اكمل واعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . وقد قالوا انه مجنون من المجانين . واي كلام اجل واصدق من كلام رب العالمين . وقد قالوا إنه اساطير الاولين . واياك ان تشتغل بخصامهم وتطمع في افحامهم . فتطمع في غير مطمع . وتصوت في غير مسمع اما سمعت ما قيل

كل العداوة قد ترجى سلامتها   الا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لاحد من الناس . لما تلي على اجلهم رتبة آيات اليأس . او ما سمعت قوله تعالى (وان كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت ان تبتغي نفقا في الارض او سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) وقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سُكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون) وقوله تعالى (ولو انزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين) وقوله تعالى (ولو انزلنا اليهم —

وكان لسانه من انزه الالسن عن فحش القول والخنى والقذف والسباب والبذائة لم اسمع منه قط في حياتي لفظة بذيئة وقد اجمع على ذلك كل من عرفه .

كان مثابراً على اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وادى في عمره فريضة حجة الاسلام . وكان يتصدق بالسر و يطوي

—الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون) واعلم ان حقيقة الكفر والايمان وحدهما . والحق والضلال وسرهما لا ينجلي للقلوب المدنسة بطلب الجاه والمال وحبها . بل انما ينكشف دون ذلك لقلوب طهرت عن وسخ اوضار الدنيا اولاً . ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانياً ثم نورت بالذكر الصافي ثالثاً . ثم عذيت بالفكر الصائب رابعاً . ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامساً . حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة . وصارت كأنها مرآة مجلوة . وصار مصباح الايمان في زجاجة قلبه مشرق الانوار . يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار . وانى تتجلى اسرار الملكوت لقوم الههم هواهم . ومعبودهم سلاطينهم . وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم . وشريعتهم رعونتهم . وارادتهم جاههم وشهواتهم . وعبادتهم خدمتهم اغنيائهم . وذكرهم وساوسهم . وكنزهم سواسهم . وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم . فهؤلاء من اين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الايمان . أبالهام الهي ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها . ام بكمال علمي . وانما بضاعتهم في العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وامثالها؟ هيهات هيهات هذا المطلب انفس واعز من ان يدرك بالمنى . او ينال بالهوينا . فاشتغل انت بشأنك . ولا تضيع فيهم —

الليلة والليلتين موثراً على نفسه . وكان محافظاً على الصلاة في اول اوقاتها مهما حالت دونه الموانع فحينما يسمع اذان الوقت يذر كل شغل لديه و يباد فوراً الى الصلاة أجابة لنداء داعي الفلاح . وكم مرة رأيته يدخل اول الوقت حانوت احد اصدقائه في الاسواق و يصلي . واذا كان في حفلة عامة ودخل الوقت ينفرج نحو زاوية منفرجة عن الناس و يصلي .

وكان نادر المثال في العفة على قلة ذات يده . والزهد بالمال والنشب . والاعراض عن حطام الدنيا . والاذدراء باللاذ المادية قانعاً بشظف العيش والاطمار البالية . لم يسمعه احـد يشكو الاملاق كما انه لم يسأل احداً في حياته واذا اضطر الى بلغة تسد العوز الضروري يبيع كتاباً او كتابين من كتبه بدون ان يطلع

— بقية زمانك . و(اعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن اهتدى) اه وقد نقلت هذه الشذرة الذهبية لتكون سهماً بيد من نصر الحق وتحراه مسدداً على افئدة الذين يكثرون من التكفير والتضليل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . وقد بلغ الحمق ببعضهم ان انكر نسبة هـذا الكتاب للامام الغزالي حينما رأى هذه الجملة وادعى انه مفتعل من قبل المجددين اه موءلف

احداً من اصحابه واحبابه . فخرج من الدنيا ولم يتعلق باعراضها ولا قرطس سهمه باغراضها ولوشاء لانثالت عليه الرغائب من كلُ جانب

وبهذه المناسبة انقل بمداد الفخر ماسمعته بالحرف الواحد من احمد ذكي باشا احد وزراء مصر العظام وعلمائها الاعلام اثناء المحاضرة التي القاها بدمشق عقب الانقلاب العثماني سنة ١٣٢٦ هجرية وسنة ١٩٠٩ ميلادية في دار صديقي القديم صاحب المقتبسين الاستاذ محمد كرد علي وهاك نصه: (ذلك استاذ الشام على الاطلاق العلامة الشيخ طاهر الجزائري فهو يضم بين طمريه العلم الجم والخلق الاشم . انا لا ادري كيف يعيش هذا الرجل في بلد مثل مصر قد اشتد فيه الغلاء حتى شكا منه الاغنياء . وقد بذلت مالي وسعي كما يعلم الاستاذ كرد علي صاحب المقتبسين ورب هذا البيت الكريم في ان يناله شيء من الاوقاف الخيرية على ان يكتب هذا عريضة لذوي الحل والعقد وقد تلطفت معه كثيراً بواسطة رب هذه الدار فلم يرض الى الآن . فماذا اقول عن هذه البقية الصالحة . لا اقول سوى كلمة واحدة تخرج من صميم الفؤاد بحب واخلاص فليعش الشيخ طاهر الجزائري . هذه الحرية وهذا الشمم هما جرثومة من ذلك الماضي المجيد الخ الخ وقد قال جملة

اعتراضية على سبيل الاحماض (ولو كنت من الذين يقولون بالاكل من تحت السجادة لقلت ان الشيخ طاهر يأكل من تحت السجادة) فهكذا يكون الاباء والشمم . وهكذا يكون الزهد لا كزهد المتجرين بالزهد من ارباب الشجع واصحاب مقولة التعيش الذين لاتشبع بطونهم حتى كادت ان تكون بسبعة امعاء (حمانا الله من ذلك) ولا غرو فعند الرهان تظهر السوابق ولدى الامتحان يكرم المرء او يهان .

مقته الحكومات الغاشمة

وقوة حدسه ومداركه في السياسة

العهد الحميدي العثماني :

لا جرم انه لا يرضى عن الحكومات الظالمة الا الظالمون او الجهال الغافلون الذين لا يفرقون بين الحسن والقبح خصوصاً اذا كان الظلم في الكليات اكثر منه في الجزئيات وكان مستوراً بسجاف الشعائر الدينية ومزخرفاً بطلاء الالوان الخلابة فالسواد الاعظم من عامة الناس خصوصاً اهل العواصم والمدن الكبيرة الذين تكون وطأة الظلم والعدوان اخف عليهم من اهل القرى (١) والدساكر

(١) لهذا كان اهل السواد اقرب الى كره الحكومات الظالمة وسماع —

من اهل السواد لا يعرف احدهم معنى الظلم الا اذا اصيب في شخصه او اهله بنزول عقاب صارم · او في ماله بضرب أتاوة باهظة ولو كان العقاب في محله · واذا برأه حاكم من جناية اقترفها بالرشوة اوالشفاعة يرى عمله عدلاً ويعتبره من العادلين بسائق تأصل الجهل · وفساد الملكات وسفالة الاخلاق · وضعف المدارك التي تري القبيح حسناً والظلم عدلاً وبالعكس كما يجد المريض طعم الحلو مراً ·

ومن كان كذلك فخليق به ان لا يدرك الظلم الخفي المزخرف خصوصاً اذا كان مصدره حضرات السلاطين العظام الملقبين بأمراء المؤمنين · وخلفاء المسلمين الذين الفت العامة تأليههم وتقديسهم والخضوع اليهم ووجوب طاعتهم بدون قيد ولا شرط لزعمهم انهم ملهمون لا يأتون بعمل الا بالهام آلهي · وانهم مجتبون من بين عباد الله وينظرون شزراً الى من ينتقد اعمالهم نظر الخوارج المارقين من الدين · الخائنين لله ورسوله وخليفته وجماعة المؤمنين

— القدح بهامن اهل المدن عداز عمائهم الذين يتواطأون مع الظلمة ويمهدون لهم السبل على شرط المقاسمة بينهم فيما يسلبونه من الضعفاء او اعفائهم من التكاليف على الاقل اه مؤلف

كل ذلك منبعث عن تضليل علماء السوء المداجين الذين هم عون الظالم وحملة عرشه فيلقنون العامة هذه التعاليم الفاسدة ويدعمونها بنحو قوله تعالى (اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم) (١) وغيرها من الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة التي ليست على اطلاقها وعمومها بل خالطها التقييد والتخصيص

(١) اجمع المفسرون على وجوب اطاعة اولي الامر اذا امروا بطاعة الله ورسوله وبجميع مايرضي الله ورسوله ولاطاعة لهم في غير ذلك روي عن علي ابن ابي طالب رضي الله عنه انه قال : حق على الامام ان يحكم بما انزل الله ويؤدي الامانة فاذا فعل ذلك فحق على الرعية ان يسمعوا ويطيعوا . قال صاحب الكشاف لما أمر الولاة باداء الامانات الى اهلها وان يحكموا بالعدل امر الناس ان يطيعوهم وينزلوا على قضاياهم والمراد باولي الامر منكم امراء الحق لان امراء الجور الله ورسوله بريئان منهم فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم وانما يجمع بين الله ورسوله والامراء الموافقين لهما في ايثار العدل واختيار الحق والامر بهما والنهي عن اضدادهما كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم باحسان وكان الخلفاء يقولون اطيعوني ماعدلت فيكم فان خالفت فلاطاعة لي عليكم . وعن ابي حازم ان مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال له ألستم أمرتم بطاعتنا في قوله تعالى واولي الامر منكم قال أليس قد نزعت عنكم اذا خالفتم الحق بقوله فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول اه اقول فليتأمل بما في هذا الرد من منح السلطة الى خيار الامة الذين يحسنون الرد وهم وكلاؤها طبعاً اه مؤلف

فيفسرونها عَلَى الاطلاق والعموم ويطبقونها عَلَى غير المراد منها على حين ان المراد امثال الخلفاء الراشدين ومن تبعهم باحسان كعمر بن عبد العزيز الاموي الذي ملأ الارض عدلاً واضراب المهدي العباسي ومحمود زنكي ومن نهج نهجهم القويم الى يوم الدين ·

فاطاعة اولي الامر الواجبة هي المندمجة في اطاعة الله ورسوله اذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق · فهذا اول الخلفاء رضي الله عنه يقول : ان احسنت فاعينوني وان اسأت فقوموني · اطيعوني ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم والثاني يقول : اعينوني عَلَى نفسي بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من امركم وانه لم يبلغ ذو حق في حقه ان يطاع في معصية الله

ولكن هيهات ان يدرك ذلك عوام المسلمين ومن كان عَلَى شاكلتهم من السذج المنتمين الى علوم الشريعة تذوقاً لا ذوقاً ولم يسبق لهم معرفة بحقائق الاشياء وطبايع الاجتماع ·

فكان مجرد كون الامير مسلماً يغني في نظرهم عن كل شيء حتى عن ايثار العدل واختيار الحق واقامة الشرع وان اطاعته واجبة عَلَى المسلمين وان كان يهدم دينهم · ويخرب ديارهم ويفسد

اولادهم . ويقضي عَلَى كيانهم ويدهورهم الى الهاوية . ويقوض عرش دولتهم المعظمة الفسيحة الارجاء ويعرض بها الى خطر الدول الاجنبية .

ففي مثل هذه الاوقات العصيبة التي كانت سائدة بها هذه العقائد الفاسدة انتدب الفقيد نفسه بموجب وظيفة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الى مكافحة هذه الاوهام واستئصالها من الاذهان وعرض بنفسه الى الخطر ومصارع الهلكة والدمار لانها محاربة للراعي والرعية وهو حاكم مطلق مستبد . وهي جاهلة الفت الاستبداد والاستعباد . والمحيط بؤرة مكتظة بالعيون والجواسيس الذين يجعلون الحبة قبة ليتقربوا الى عميدهم بالسعاية والوشاية حتى ينالوا وظيفة او راتباً او رتبة او وساماً اونفوذاً يستند به ساعدهم عَلَى السلب والنهب وهضم الحقوق واقتطاع الاراضي واختلاس الاوقاف . ومن طبيعة المستبد ان يقبل كل وشاية لانه يخاف كل شيء حتى انه ليتخيل بظله . لاسيما وان فقيدنا كان كثير الحساد والاعداء من العلماء المحتفظين بالقديم . والجهلاء المتعممين . والاكابر المجرمين الذين هم من صنائع المستبد يتقلبون بنعمه و يستظلون بظله ويشمخون برتبه . فهؤلاء فضلاً عن

تفانيهم بمحبة ولي نعمتهم واخلاصهم لعرشه يمقتون فكرة الفقيد وامثاله اكثر مما يمقتها نفس سيدهم لانه يطلب الى الحكومة الاصلاح والعدل وانصاف المظلوم من الظالم وانتشار العلم وتوسيد الوظائف لاهل الكفاءة واحترام الامة واخذ آراء خيارها وممثليها ولا ريب ان هذه المطالب لا تلتئم مع اهوائهم لانها تقضي على نفوذهم وتهوي بهم الى الحضيض لانهم عاطلون من الانصاف والعلم والفضيلة والكفاءة . ولا نفوذ لامثال هؤلاء الحثالة السواسية الا بظل الحكومات الظالمة وبيئة الحكم المطلق والاستبداد وجو الجهل القاتم . لكن الله تعالى حماه من شر سعاياتهم وشرك كيدهم برويته وحسن تصرفه فكان يعرف كيف يبذر بذوره وانى ومتى يبذرها فما كل مكان تنشد فيه الاراجيز . ولا كل زمان تتلى فيه الاهازيج فالرجل كل الرجل من تنتشر اراجيزه ولا يعلم الناس من الراجز وتسري آراؤه بين الملاء ضمن اهازيجه ولا يعرفون من الهازج الى ان تبدل الارض غير الارض وتشرق بنور الحرية التي كانت ضالته المنشودة .

فكان ينشد حرية التعليم والتأليف لتكشط عن الاذهان غلف الجهل والاوهام فتفقه الرعية مالها من الحقوق وما عليها من

الواجبات . ينشد حرية النقد الموزون بالقسطاس المستقيم لساناً وقلماً لتقويم اود الاعوجاج ليفل الراعي من غربه ويربع على ظلعه ويفيء الى رشده . ينشد الامن والعدل والمساواة في الحقوق والجزاء ومباراة الامم الراقية في الزراعة والتجارة والصناعة ومضاهاتها بعلومها ونظامها واعتدادها لتكون في نجوة من التهامها كما هو شأن الضعيف مع القوي والجاهل مع العالم .

كان ينكر على الراعي التهاون بالدين بتوسيد وظائفه من قضاء وفتيا وارشاد وتعليم وتدريس وامامة وخطابة الى الجاهلين وامتهان علمائه الحقيقيين واقصائهم لانهم لا يحابون ولا يداجون . واهمال مدارسه وعدم تنشيط طلابها ومؤازرة اساتذتها مما يفضي الى القضاء على العلوم الاسلامية والاسلام . والاقتصار على رسومه وشعائره الرسمية الصورية التي من شأنها ارضاء العامة ولا تجدي نفعاً بل ربما كان اكثرها من البدع التي يأباها الدين . وكان ينكر على الراعي اثقال عواتق الرعية بكثرة ضرب الضرائب والاتاوات الباهظة وجبايتها بالغلظة والقسوة واشتراك الراعي واعوانه باختلاسها واقتسامها وادخار بعضها وتبديد البعض الآخر في البذخ والانغماس بالترف والملاذ المادية على حين انها تجبى باسم

المشاريع العلمية والعمرانية النافعة . وتأييد المنعة بتجهيز الجيوش واعداد الاعتاد البرية والبحرية لاعزاز الجامعة وحفظ البيضة وصيانة البلاد من الخطر المسدد عليها من الخارج وراحة العباد بتوطيد الامن عَلَى النفس والعرض والمال من العدوان والتهارج في الداخل .

ولكن لاعلم ولا عمران ولا صيانة بلاد من الخطر الخارجي ولا تأمين راحة عباد من العدوان الداخلي . بل ان كلاً من جوع الجيش وعريه وسوء اخلاق الشرطة وتمرد ذئاب الدرك كان ضغثاً عَلَى ابالة فزاد في طين البلاء عَلَى الامة بلة لان حماة الوطن بدلاً من ان يستعملوا بأسهم فيما وضع له تجوزوا به ففوقوا نباله عَلَى افئدة الرعية البائسة الخاضعة . ومن ورائهم يشد ازرهم غلظة امراء العسكرية وسوء ادارة عمال الملكية . وظلم حكام العدلية وتواطئ الجميع عَلَى استنزاف الاموال بالرشوة والاختلاس بالسلب والنهب لايسأل احدهم عما يفعل مادام مخلصاً لعرش مولاه يؤدي مايجب له عليه من القرابين البشرية بتزوير تقارير الجاسوسية . ويؤتي اولياء نعمته في العاصمة من بطانة السوء زكاة امواله المختلسة وان تطوع بمشاطرتهم فهو خير له وابقى . ويحج لهم ان استطاع اليه

سبيلاً متقرباً اليهم بالهدايا والقلائد تأييداً للعبودية وازدياداً بالقربة ويقفل مبرور الحج مشكور السعي آيباً بالاجر والثواب رابح الصفقة بالرتب والاوسمة تأييداً للشوكة وتزييداً للسلطة . وعامة الرعية جاهلة تشكو النقمة ولا تعرف مصدر النقم والخاصة تتلهب غيرة وتتلظى غيظاً تحرق الارم ولا تقدر ان تنبس ببنت شفة وفم

ولا يغرب عن الاذهان ان هؤلاء العمال لم يتولوا ولاية في مقاطعة من المقاطعات التي لا تلتئم عوائد اهلها مع قوانين الدولة ولا تمتزج طبيعتهم بطبائع حكامهم اما لشدة إبائهم الضيم او لصلابة دينهم او لتباين دينهم وعنصريتهم لدين الدولة وعنصريتها الحاكمة الا وفتقوا في المملكة بسوء ادارتهم وجهلهم وظلمهم فتقاً لا يرتق ينجم عنه سوق الكتائب ورشق الرصاص واهراق الدماء وتكبد النفقات الطائلة عَلَى غير جدوى لان النتيجة تكون بانفصال البلاد بان تستقل او تقتطعها الدول الاجنبية او تظل عَلَى عصيانها المستمر

وبدلاً من ان ينزل العقاب الشديد بهؤلاء العمال جزاء ما اقترفوه من الظلم وسوء الادارة حتى اضاعوا البلاد . او يساقوا عَلَى الاقل الى المحاكم العليا ليكونوا عبرة لغيرهم . يحسن اليهم بترفيع الرتب والوظائف وانواع الاحسان والانعام . ولا غرو

فانهم شركاء المستبد الاكبر وشركاء اعوانه من بطانة السو
المحيطين به احاطة السوار بالمعصم . وهو محتجب عن الرعية
احتجاب ربات الخدور بالقصور لا همّ له الا السهر على كل ما
يضمن صيانة ذاته المقدسة . وادخار الاموال . واقتطاع الاراضي
والمساومة على مرافق الدولة والاتجار بالامتيازات . وبث
الارصاد والعيون . وضرب نطاق الحجر والمراقبة لكمّ الافواه
وخنق الافكار . وبذر بذور الشقاق بين وزراء الدولة وكبرائها
ليشغلهم بعضهم عن التألب عليه . وغير ذلك من المظالم والمغارم
والافاعيل التي كان فقيدنا يوجس خيفة منها لانها مؤذنة بانفراط
عقد الدولة وانقراضها لفرط اخلاصه لدولة الاسلام الوحيدة وتلهب
غيرته عليها . لا كما يتهمه خونة الدولة والوطن بالمروق من العثمانية
والخيانة الوطنية لانهم اصطلحوا على اطلاق الخيانة على كل من
يشخص امراض الدولة ويبين عللها ويصف لها العلاج الناجع .
ويسعون به بتهمة انه يحاول انفصال البلاد وتسليمها الى الاجانب .

وحقيقة الامر ان الفقيد وامثاله يريدون بذلك اصلاح
الدولة وصلاحها . وينشدون فلاحها ونجاحها لتصلح وتبل مما الم
بها ويتولى مقاليد امورها خيارها فيلموا شعثها ويرأبوا بحكمتهم

واخلاصهم ماصدعه اسلافهم بجهلهم ومطامعهم . ويحترموا الامة باخذ آرائها او ينصفوا العناصر بمنح كل ذي حق حقه ومستحقه ليكون جثمان الدولة متناسب الاعضاء متحد الشعور والاحساس كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالسهر والحمى فتكون بهذا التناسب وتلك الوحدة كتلة قوية عظيمة تصون كيانها من مطامع جيرانها الذين يتربصون بها الدوائر ويتحينون الفرص لشن الغارة عليها وتمزيقها وتقطيع اوصالها والتهامها .

فاذا حصلت عَلَى هذا النجاح فهو المطلوب وهو خير وابقى لان تدرع الشعب الضعيف الجاهل بسياج دولة راسخة الملك وافرة القوى تنصفه من نفسها خير له من ان يعرض نفسه بالانفصال لخطر الاجنبي الذي يبتلعه كلقمة سائغة الى ان يبلغ العرب رشدهم فيروا حينئذ ماهو الاقرب لمصلحتهم من الاستقلال بتمام الانفصال ام الاستقلال بجميع الفروع مع التوحد بالاصول كما كان الحال بين حكومتي النمسا والمجر . واذا لم تصلح الدولة وتبل من اوصابها وجاء الاخلاف يعقبون خطة الاسلاف كما هو الغالب عَلَى الظن جرياً عَلَى قاعدة ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع خصوصاً اذا كانت اعضاؤها متباينة العناصر مختلفة المذاهب . فيجب عَلَى

العرب ان يتأهبوا بالعلم والاخلاق على كل حال سواء كان هذا او ذاك . فاما ان يكون ارقى عضو في جثمان الدولة لان عنصرهم اكثر عدداً واعرق مجداً من بقية عناصرها . فيما اذا كتب لها البقاء . وإما ان يكونوا على أهبة التحفز لنيل استقلالهم وصون كيانهم و بلادهم من ان يبتلعها حيتان الاستعمار فيما اذا قامت قيامة الدولة وتداعت عليها الامم من كل جانب لاكتساحها واقتسام بلادها . هذه النظرية التي ثارت بدعوة الفقيد وامثاله اليها ثورة الافكار الادبية في البلاد السورية وسرت الى بقية الاقطار العربية التي كانت خاضعة لسلطان الترك . وانتبه كثير من فتيان العرب واتحدوا مع فتيان الترك (تركيا الفتاة) الذين ثارت افكارهم من قبل بدعوة امثال مصطفى رشيد وعالي وفؤاد ومصطفى فاضل وضياء ومدحت ونامق كمال وغيرهم . واندمجوا بجمعياتهم السرية التي كان مركزها العام في باريس ولجانها الفرعية في مصر وكثير من حواضر السلطنة . وحينما اتحدت كلمة الفريقين بواسطة الموظفين منهم في بلادنا اتخذوا ايضاً لجاناً فرعية في المدن السورية خصوصاً في قاعدتها دمشق . واخذت المراسلة تجري بينهم و بين المركز و بعض الفروع بواسطة البرد الاجنبية . وتوسعوا في

خططهم فكثر حزبهم وانتشرت افكارهم حتى كاد يفضح امرهم بفضل المراقبة على البرد وكثرة التجسس . واشتبه حضرة السلطان بالقطر السوري وعهد بقيادة الفيلق الخامس الى احد غريسي نعمته والمتفانين بالاخلاص لمرشه المشير عبد الله باشا الشركسي وانفذه لهذه الغاية ونحى والي سورية حسن رفيق باشا لغفلته او تغافله عما يجري تحت طي الخفاء في منطقة ولايته وعهد بها الى ناظر الضبطية ناظم باشا الذي لم يلبث ان هدأ روع متبوعه الاعظم بان مارفع الى سدته السنية لا نصيب له من الصحة . وانه اوهام في اوهام .

لكنه بالوقت نفسه اوغل ببث الارصاد ليحرز (على ذمة القائلين) رضا الفريقين . ويضع كلتا رجليه في الجهتين فاي الفريقين رجحت كفته وفاز بالغلب والظفر يكون في جانبه (١) وينضوي تحت لوائه . فضرب التجسس في عهده بجرانه فسكنت حركة الاحرار وخفت صوتهم وكثر كبس البيوت ومداهمتها

(١) وقد كان ذلك فان الاتحاديين اخذوا بيده عقب اعلان القانون الاساسي حينما رفضه اهل بيروت كما رفضه اهل ملانيك فاوعز مركز دمشق الى فرع بيروت بضرورة قبوله وانفذوا له رسالة يشكرون بها سابق جميله معهم في ذلك العهد العصيب اه مؤلف

على حين غرة من اصحابها وتفتيش خزائن كتبها لتحري الرسائل السياسية والجرائد والمجلات والكتب المحظورة المدعوة جميعها باسم (اوراق مضرة) فكان يصادر باسم التحري كثير من الكتب ينهبها سفلة الموظفين .

والادهى من ذلك ان طغمة المتحرين من ترك ومن عرب لقصر باعهم في اللغة العربية لا يفقهون معنى الكتب فلا يفرقون بين الضار عَلَى حسابهم وبين غيره فاذا وقع نظرهم على صحيفة من كتاب تعبير الاحلام جاء بها مثلاً ومن رأى السلطان الخ يشتبهون بالكتاب ويطول امد التدقيق به . ومن البلية ما يضحك .

وكان في مقدمة الذين كبست دورهم استاذنا الفقيد اذ حامت حوله الظنون . وكثرت عليه العيون . فبوغتت داره وغرفته في المدرسة غير مرة . ونبشوا كتبه واوراقه وتحروها وهو غائب يتجول في انحاء القطر السوري . ولا بدع فحرمة صيانة المنازل لا نقش لها في قواميسهم والغاية تبرر الواسطة . فادرك ان اكتظاظ الكبس والتحري من حين الى آخر ليس الا من قبيل الانذار بالخطر . وان اول الشر شرارة : وان كل مرة

لاتسلم الظباء من جرة (١) . فضاقت عليه الارض بما رحبت واسود في عينيه الافق العثماني واقعد مطي الحذر . ورأى ان لا ملجأ له من هذا الشرك الا بالفرار الى دار الاحرار .

هجرته الى مصر

فبارح سورية بعد ان ملأ طباق ارضها علماً وجو سمائها نوراً وترك خلل الافكار وميض برق يوشك ان يكون له ضرام . وهبط مصر فالقي بها من الحفاوة والاحترام ما يلقاه الفاضل في المدن الفاضلة بخلاف المدن الجاهلة فان الفضلاء بها غرباء لاسيما وان زامر الحي لا تطرب مزامره في دياره . فاقام بها زهاء ثلاثة عشر عاماً ينشر في خلالها علمه وحكمته وآرائه ومصنفاته ومقالاته . وهو عَلَى ماهو عليه لم يغير شيئاً من خططه وعاداته . ونال الحظوة الكبرى لدى سراة مصر واعيانها من اركان النهضة المصرية . وفاقت مكانته في مصر مكانته في ربوع الشام . ولا عجب فان سراة مصر واعيانها و (بشواتها و بكواتها) جلهم من العلماء والفضلاء والكتاب والباحثين المستنيرة

(١) والجرة بالضم و يفتح خشيبة في رأسها كفة يصاد بها الظباء كما في القاموس المحيط اه مؤلف .

افكارهم . وانما يعرف الفضل من الناس ذووه فاعجبوا بعلمه الغزير . وآرائه الثاقبة . وخبرته الواسعة . واخلاقه الفاضلة . وزهده وشممه . وصبره وجلده . ومضاء عزيمته مع شيخوخته وهرمه . وحل في قلوبهم محل الانسان من العيون . ولا يخفى ما عرف به المصريون من لين الجانب ورقة الشمائل وبشاشة المحيا . وسلامة الصدر ومحبة الغريب والترحيب به . بارك الله بهم واحسن اليهم و بلغهم مناهم .

نعم غادر سورية ولكنه خلف بها تلك الثورة الفكرية التي انشأت تنمو بسرعة باهرة بالرغم عن كل احتياط اتخذ في هذا السبيل حتى انفجر بركان البلقان . والامر اذا ضاق اتسع والضغط يولد الانفجار . والشعور اذا حل في القلوب لا يقدر على انتزاعه منها ملك او جبار .

العهد الاتحادي العثماني

ادال الزمان من السلطان عبد الحميد لخصومه فهدرت شقاشق الاحرار المصلحين . وهدأت اصوات السعاة المفسدين . ونودي باسقاطهم الى اسفل السافلين . وبينا نحن

مبتهجون بهذا الانقلاب السعيد ثملون بخمرة الحرية نقدس ابطالها ونرتل آيات محامدهم والثناء عليهم . نقيم الحفلة عقب الحفلة . ونلقي الخطبة تلو الخطبة غير عالمين بما تكنه الليالي ولا بما تخبئه الاقدار . اخبرنا بعض القادمين من مصر ان الاستاذ الجزائري ناقم على هذه الحال غير راض عن جمعية الاتحاد والترقي . وان احد اصدقائه سأله الرجوع الى سورية لان المانع قد زال فابى واجابه كلا لم يزل بعد شيء . وما هذا الانقلاب الخلاب الا انتقال من نير استبداد الفرد الى نير استبداد الجماعات . فلم نكد نصدق الخبر حتى ثبت بالتواتر واتصل بنا ان نقمته لم تقف عند حد بل آخذة بالنمو والاستمرار . وانه ضم رأيه الى رأي صديقه صاحب جريدة المؤيد الشيخ علي يوسف الذي افرغ كنانته من كل سهم سدده على الاتحاديين وعلى السلطان محمد رشاد حين تبوأ عرش اجداده العظام . حتى اضطرت شبيبة دمشق الى اسقاط جريدته في مشهد حافل بحديقة الامة . ولم نستغرب منه ذلك لان اغلب المصريين لا ينظرون الى الحكم الحميدي بالعين التي ينظر بها الرازحون تحت نير استعباده لان آكل العصي ليس كمن يعدها . لكن اخذ

العجب منا كل مأخذ من الاستاذ الشيخ طاهر الذي أثار افكارنا ولقح اذهاننا بمقت الحكم الحميدي المطلق . وفرَّ من شركه . واختلف الاحرار في تعليل سبب نقمته ووصمه بعض المتسرعين بالاحكام بانه قلب لا يثبت عَلَى حال وان من شأنه حب المخالفة لكل حكومة عَلَى كل حال وان هذه غريزة طبيعية به وهي من جملة غرائبه . وبعض عارفيه اخذ ينتزع له ضروبا من التأويل .

ولكن لم يمض ردح من الزمن بل ثبت بأوجز برهة ما كان يعزى اليهم وكنا نظنه من اراجيف المرجفين ودسائس الرجعيين . اذ طاشت سهامهم فأكثروا من النقض والابرام . والتحوير والتعديل . والتغيير والتبديل . واوغلوا بالبطش والارهاق . وظهر سوء نيتهم نحو العناصر الغير التركية . ومحاولة تتريكهم تارة بدس الدسائس وتارة بالضغط والتضييق حتى اضطروا الالبان للمجاهرة بالعصيان فساقوا عليهم الكتائب والجيوش فلم تفلَّ من غربهم بل كانت النتيجة ان خذلوا الدولة في الحرب البلقانية وانفصلوا عنها بسوء ادارة عصابة الاتحاديين الذين كانوا اشبه بسوس ينخر عظام الدولة .

فاضطر الى مخالفتهم والانشقاق عنهم جميع الاحرار عَلَى

اختلاف قومياتهم ومذاهبهم ولم يبق موالياً لهم الا المنافق السافل · او الغر الغافل · وتكوّن المخالفون فرقاً واحزاباً فاشتد الخلاف وحمي وطيس الجلاد · وكانوا يتهمون كل فريق من المخالفين بما يناسبه فان كان من شيوخ الاناضول اوالعرب يصمونه بالارتجاع والحنين الى العهد الحميدي وانه كان من جواسيسه · او بكونه من الجمعية البركانية التي ثارت عليهم باسم الشريعة المحمدية · وان كان من فتيان العرب يتهمونه بالسعي وراء انشاء خلافة عربية · كما يحتجون على كل من ينابذهم من الالبان والارمن والاكراد والاروام بانهم طلاب استقلال ورواد انفصال · والجميع مشتركون في نظرهم بجناية تفريق العناصر العثمانية وخيانة المروق من الوطنية ·

ثم ائتلفت جميع الفرق والاحزاب السياسية وصاروا حزباً واحداً باسم حزب الحرية والائتلاف فقويت شكيمة المعارضين وصارت الاكثرية في المجلس النيابي بجانبهم فأوجس اولئك خيفة من هؤلاء فعمدوا الى درس الدسائس لفض المجلس بخلق مشكلة المادة الخامسة والثلاثين من القانون الاساسي · وضغطوا على الامة في الانتخاب ضغطاً لم يكن في الحسبان ليستعيدوا اكثريتهم المفقودة خشية انتقال مقاليد السلطة الى خصومهم · وتجلى للامة

باجمعها انها انتقلت من برج استبداد الفرد الى برج استبداد الجماعات وصاروا يردفون اسم النباش الاول بالادعية الخيرية والرحمات ويهزؤون بهذا الدستور الكذاب . واكثر هؤلاء من البطش والفتك والاسراف بالظلم والتهور ونحو ذلك من الفظائع المؤذنه بالتعجيل على اجل الدولة .

وثبت لنا انا كنا مخطئين بادئ بدء بحسن الظن بهم وان استاذنا الفقيد كان مصيباً باساءة الظن بهم منذ بداية الانقلاب وكنا نذكره بخير ونعجب بقوة حدسه وصدق فراسته . الى ان امّ سورية قبل الحرب العامة بشهرين فوجدته كما فارقته بجميع اوضاعه وحركاته وسكناته لاحديث له ولا سمر الا الدعاية الى العلم . واستنهاض الهمم . واثارة العواطف . واستحياء الشعور فافضى بنا الحديث الى التذمر من احوالنا الحاضرة فقلت ياسيدي ان الاتحاديين اتبعوا الخطة الحميدية واجتازوها بمراحل وغلبت عليهم الاوهام وساءت ظنونهم بكل من تبدو منه ادنى مخالفة او تبدر منه اصغر بادرة . ورجحوا على الحكومة الحميدية بالاكثار من التجسس . واستصناع الجواسيس . فاجاب نعم بلى . وقال حاولت هذه المرة ان اقدم سورية من فرضة طرابلس فلم البث

بها يوماً او بعض يوم حتى استدعاني المتصرف واخبرني انه رفع اليه تقرير فحواه اني قدمت طرابلس من مصر بوظيفة سرية من قبل الانكليز للمساومة على سورية وسلخها عن املاك الدولة العلية وضمها الى مصر فقهقهت واجبته بتهكم وازدراء · ياللعجب كيف تنطلي عليكم ايها الساسة الاداريون هذه الاوهام التي لا تنطلي على صبيان الكتاتيب وعجائز البيوت ثم قلت له بجدة كن على ثقة ياحضرة المتصرف ان قضية اقتطاع سورية او غيرها وضمها الى مصر لا يستطيع تنفيذها نفس سلطانك عبد الحميد ابان دولته وصولته · ولا دولة بريطانيا ولا روسية ولا فرنسا ولا كل دولة من الدول المعظمة على انفرادها بل هي معضلة دولية يتوقف حلها على مؤتمر دولي فقبع وانتحل لحكومته المعاذير الواهية وانصرفت من عنده بسلام ·

ثم اجترأت عليه بهذا السؤال قائلاً بينا نحن ياسيدي نقدس الاتحاديين حين اعلان القانون الاساسي ونشكر حسن صنيعهم ترامى الينا انكاركم عليهم · وانحياز رأيكم الى رأي الشيخ علي يوسف الذي تفرد به يومئذ واقام النكير عليهم في صحيفته ونحن اقمنا النكير عليها · ولم نستغرب انكاره مثل استغرابنا انكاركم الى ان حصحص

الحق وتبين الرشد من الغي . فما الذي اكتشفتموه ونحن عنه غافلون

فاجاب رحمه الله قائلا : ان مقدمات اعمالهم دلت عَلَى سوء النتائج . ثم انطلق يوفي الموضوع حقه من الاشباع مما يعرب عن دقة محاكمته المنطقية بدلالة العقل . والمقايسة والاستقراء التام ورد الاشياء الى الاشباه والنظائر وهذا يحتاج مع سعة العلم لحدة الذهن وقوة الفكر المولد كذكائه الفطري وفكره الذي كان سريع الانتباه دقيق الاستنتاج والاستنباط .

واغرب من هذا انباؤه من الحرب العامة قبيل وقوعها وذلك اني لما انتهيت من حديثي بسرد مفردات المظالم والنكبات التي اصابت البلاد واهلها بسوء ادارة الغاشمين وخبث نية حكومة العاصمة نحو الامة العربية عامة والشعب السوري خاصة . لاسيما الدور الاخير الذي مثلوه ليتمكنوا من تسكين الحركة الاصلاحية بالمراوغة والخداع ودس الدسائس . وتخدير اعصاب القائمين بها بالمواعيد العرقوبية .

قال لي يافلان ليهدأ روعك فاني ابشرك انهم امسوا عَلَى شفا جرف هار . وان نجمهم عَلَى وشك الافول . فلا بد ان يتداعى بناؤهم . وينثلم ركنهم في القريب العاجل لانه اذا

حصلت الحرب العامة كما هو المنتظر على الراجح حلت القضية بطبيعتها وتخلصت قائمة من قوب . وان ظل السلم العام باسطاً ظله وضاربا باطنابه على المرجوح فان حكومات اوربا سئمت منهم وطال عليها امد الانتظار فلا بد لها من التذرع باصلاح داخلية الدولة ولا يعسر عليها ان تخلق مئات من المشاكل التي تمهد لها سبل التدخل في شؤونهم . لان الاوربيين يستوبأون في جوارهم بؤرة فاسدة تحتوى . فلا محيص لهم من تطهيرها لهذا يجب على العرب ان يكونوا على تمام الاهبة لما عساه يحدث ليستفيدوا من الفرص السانحة لان الليالي من الزمان حبالى . وما خاله الا في دور المخاض

فلم يمض على هذا الحديث ثلاثة اسابيع حتى اغتيل ولي العهد لامبرطورية النمسا والمجر الارشيدوق فرانسيس فرنند في سراجيفو في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ فقال الفقيد ان هذه الشرارة لمن احدى الكبر . وان لها ذنباً طويلاً عظيم الخطر ثم انجر ولم يعقب آيباً الى مصر من حيث اتى فاضطرمت نيران الحرب وحمي وطيسها ونجا فقيدنا بنفسه وسلمه الله تعالى من احبولة الاتحاديين وحبال مشانقهم التي نصبوها في سورية لتكون بمنزلة عربون انفكاكها عنهم لانه لو ظل يومئذ في سورية لسيق في مقدمتنا الى مجزر (عاليه)

وذاق من انواع العسف والارهاق مثل ما ذاق اغلب اصدقائه ومريديه من الشنق او التعذيب او التغريب لان مقصدهم من الفظائع التي اقترفوها بدون ان يجرم احد جرماً يستوجب العقاب بالاعدام هو القضاء على النهضة الفكرية التي نشأت في البلاد العربية . والفقيد مسجل اسمه عندهم في رأس دفتر دعاة العلم والاصلاح والحرية . ويعلمون حق العلم انه من اعظم اركان النهضة الادبية السورية .

اخبرني احد اصدقائي قبيل ان يبتدئ جمال باشا السفاح ناظر البحرية العثمانية وقائد الجيش الرابع بتمثيل اول دور من ادوار هذه الرواية المأساة ان الحكومة تتحرى كل من نفخ هذه الروح في هذه البلاد و بذر تلك البذور في تربتها الخصيبة التي سرعان ما انبت النبات الذي كان شجى في حلوق هؤلاء الظالمين وقذى في اعينهم فحمدت الله تعالى عَلَى نجاة الاستاذ الشيخ طاهر بسرعة اوبته الى مصر وادركت ان هذه البلية لاينهض صريعها وان الخطر حاق بنا ولا مفر .

وقد ازداد حنقه على هؤلاء الظلمة واشتدت كراهته اياهم بعد ان صدر عنهم ماصدر من سفك الدماء واستنزاف الاموال .

وتعذيب الرجال وتغريب النساء والشيوخ والاطفال . واستعباد العباد وتخريب البلاد . (١) خصوصاً بعد فظائع مجزر (عالية) الذي شنق او عذب باحكامه النيرونية خيرة نوابغ العرب من اصدقاء الفقيد ومريديه . وفي عدادهم ابن اخيه سليم بك الشهيد احد امراء اركان حربية الجيش العثماني النوابغ .

فكان يأبى ان يذكر هؤلاء الظلمة في مجلسه لفرط حنقه عليهم . ورفض ان يعزيه احد بمصابه بابن اخيه وبقية مريديه واصدقائه مالم يثأر الله تعالى للمظلوم من الظالم . ولم يبتهج في حياته بشيء مثل ابتهاجه بالثورة العربية وكان يدعو لتنشيطها وموآزرتها ويرجو لها النجاح والفلاح . وحينما اذاع لسان البرق في مصر خبر احتلال الجيش العربي وجيش حلفائه دمشق وانهزام جيوش الظالمين شر هزيمة في حوران وفلسطين ثم سقوط

---

(١) ونحو ذلك من انواع الظلم والارهاق التي يضيق المجال هنا عن استقصائها وبيان مجملها . واذا ما ساعدت المقادير ان شاء الله تعالى وسنحت الفرص فسأفرد لذلك كتابا على حدة ادرج فيه اسباب انفصال العرب عن الترك والاسباب الباعثة لطغمة الاتحاديين على ارهاق نوابغ العرب وطلاب الاصلاح والاسباب التي حملت طلاب الاصلاح على التشديد بالمطالبة به اه مؤلف .

حلب برد لهيب احشائه وقبل التعزية بابن اخيه و بقية الشهداء ·

وكان لفرط انسانيته ووطنيته تؤرقه تلك الرزايا التي اجتاحت البلاد · واودت بالعباد · فقد اتصل بي ان رجلاً من خاصته قال له ياسيدي ان جبتك تمزقت فينبغي خياطتها فاعرض عنه فلما اكثر عليه غضب وقال له ان الوفا من اخوانك بالانسانية ومن ابناء وطنك يموتون كل يوم جوعاً وقتلاً وارهاقاً وانت تفكر بجبتي وتمزيقها وترقيعها ·

وكان ابتهاجه باستقلالنا الوليد فوق ابتهاج من يرزق ولداً عَلَى الكبر وحنوه عليه يفوق حنو الوالدة الشفيقة عَلَى ولدها الوحيد ويخشى عليه من هبوب النسيم · وكان يقول يجب على الامة ان تحسن حضانته بالحكمة والحزم والاخلاص والامانة خشية حدوث مالا تحمد عقباه ·

سياحته

لا يخفي ما للسياحة من المزايا العديدة كالاشراف عَلَى بلاد الله · ولقاء عباده من اهل العلم والفضل وتبادل الافكار بين اهل الاقطار · وغير ذلك من الفوائد · لهذا كان له شغف

بالاسفار وقد اسلفنا انه تشرف بتربة الحجاز لأداء فريضة الحج كما انه امَّ مرة اوربا للاشراف عَلَى معرض باريس . وتعرف ببعض علمائها من كبار المستشرقين . واسلفنا انه هبط مصر . اما القطر السوري فكاد يعرفه بالاذرع لكثرة تجوله في انحائه خصوصاً في دوري شبابه وكهولته فانه كان يسلك اطواد سورية وانجادها . وسهولها وحزونها راجلاً على قدميه . وكان له في كل حاضرة او قصبة من مدن القطر وقصباته اصدقاء ومريدون .

احواله الروحية والشخصية

بالنظر الى تداخل فضائل المرء بفواضله واندماج خصائصه بعضها ببعض كالشبكة يعلم مما سلف بالعبارة والدلالة والاشارة ان الفقيد كان عَلَى جانب عظيم من فرط الذكاء والحذق والدهاء الفطري . وسمو الادراك النظري . كما انه كان قوي الحافظة التي توشك ان لا تنسى شيئاً اشرفت عليه او سمعته مهما طال الزمن . قوي الحجة . فصيح اللسان . اذا تكلم افصح واجاد وافاد . وبدد عن الاذهان غشاوة الاوهام . فكانت مجالسه روضة من رياض الجنان . تذهب عن ضويداء

القلوب سوداء الاحزان · لاسيما اذا كان امينًا من جلسائه بان لم يكن بينهم احد من ارباب الرعونة والشغب · او ممن عرفوا بنقل المجالس · ويزداد انطلاقًا اذا لحظ من محادثيه الارتياح لحديثه · وكان لايخلو من مداعبة رقيقة ونكت لطيفة غريبة غير خارجة عن دائرة الآداب · وكانت روحه خفيفة الوطأة عَلَى النفوس · قريبًا الى القلوب بجميع اوضاعه الطبيعية التي لا يشوبها شبة من التصنع والتكلف · وان مجلسه عَلَى اختلاف موضوعاته لايخلو من الفوائد ولو كان في خلال الحكايات . اذكر من ذلك قصة لاباس من ايرادها عَلَى سبيل الاحماض لانها لا تخلو من الفوائد ·

وذلك انه افضى به الحديث مرة في احد مجالسه الى سيرة صديقيه بدري بك ورفعت بك (١) من امراء العسكرية · وعلماء

(١) كان احدهما وهو بدري بك برتبة زعيم (اميرالاي) والثاني برتبة قائمقام وكلاهما من المتفننين بالعلوم الرياضية والطبيعية والادبيات التركية لكن الاول كان يفوق الثاني بالمعلومات الفنية كما ان الثاني كان يفوق الاول بالادبيات التركية · وقد توفي رفعت بك في حلب وهو عَلَى رأس وظيفته في العهد الحميدي · واما بدري بك فبينما كان مثابرًا عَلَى وظيفته قانعًا براتبه اذ صدرت الارادة السنية بطرده من وظيفته وأحالته —

اركان الحربية وأساطين تركيا الفتاة فاخذ يثني على درايتهما وحسن سيرتهما . وانهما لولم يكونا من زعماء الاحرار لكانا اليوم في مصاف المشيرين والوزراء لان كثيراً من امراء الألوية وقواد الفرق والفيالق والمشيرين من تلامذتهما امثال المشير جواد باشا الصدر الاعظم فانه تلمذ لبدري بك . وان المشير عثمان باشا الاعرج والي سورية . ومثل الدور الحميدي باتم مظاهره

—على التقاعد فاتخذ مهنة المحاماة في المحاكم الشرعية والنظامية وقد رأيته غير مرة بين يدي قاضي الشرع يدافع عن دعاوي موكليه الى ان حصل الانقلاب العثماني فرفع من شأنه بقدر ما وضعه الدور الحميدي اذ عهدت اليه حكومة العاصمة بولاية مناستر في ايالة مكدونيا مع ترفيع رتبته الى اميرلواء . ومات هناك وسبب محنته انه لما اسست المدرسة الطبية في دمشق ارتأى والي سورية ناظم باشا وقائد الفيلق الخامس المشير اسماعيل حقي باشا تعيين بدري بك مدرساً للعلوم الرياضية والطبيعية في المدرسة المذكورة قصد استفادة التلامذة من تفوقه بهذه العلوم . واستفادته من ضميمة راتب التدريس الى راتب الوظيفة الزهيد بالنسبة لعلمه ومقدرته وقدمه وعفته وحرمانه من الترفيع فحينما عرضت اوراقه على اعتاب الحضرة السلطانية للمصادقة عليها اشتبه باسمه وسأل من ذكره به فغضب قائلاً : أفي قيد الحياة بعد هذا الخائن ؟ وكيف يكون من امراء جيشي السلطاني رجل من تلامذة مدحت ومريديه . وصدرت ارادته السنية بتنحيته عن وظيفته . واحالته على التقاعد مع وجوب اقامته في دمشق واخذه تحت المراقبة . اه مؤلف

او عز الى قائد الفيلق الخامس الفريق عمر رشدي باشا باقصائهما عن دمشق مركز الفيلق الى بعض ملحقاته . وابعاد كل منهما عن صنوه بارسال احدهما الى الجنوب . والثاني الى الشمال ففعل . ولم يلبثا ان غادرا المركز الا وارتبكت دوائر العسكرية . وابطئ سير المعاملات وتعطلت الاشغال لان اركان الدوائر الحربية لا يجدون لكل واقعة تقع او حادثة تحدث نصاً في مواد القانون فصاروا يستفتون النظارة في العاصمة عن كل قضية ويستأذنونها باجراء كل عمل من هذا القبيل . والعاصمة تبطئ عليهم بالاجابة . وربما يرد الجواب بعد طول الانتظار مجملاً يحتاج الى تفسير اوغامضاً يحتاج الى توضيح فيعززون الاستفتاء ويؤكدون الاستئذان . ولا يخفى ما في ذلك من وقوف دولاب الحركة . وتأخر المعاملات . وتعطيل المصالح . فوجدت القيادة ان لا مناص من وجودهما فاضطرت الى اعادتهما الى المركز فعادت المياه الى مجاريها . والاعمال الى سيرها بسرعة وانتظام .

عند ذلك سأل الفقيد احد مريديه قائلاً . عجباً هل كانا يطبقان المعاملة على رأيهما في غير المنصوص عليه تسريعاً للاشغال بدون تطبيق القضية على مادة قانونية فأجاب كلا . قائلاً ما

محصله . انهما لم ينحرفا عن جادة القانون قيد شبر ولكن للقانون منطوقاً ومفهوماً وأشارة ودلالة ولنصوصه مسالك علة تفسح المجال لقياس غير المنصوص عَلَى المنصوص مادام حسن النية موجوداً . وان كثيراً من نصوصه المطلقة او العامة غير باقية عَلَى اطلاقها وعمومها بل تخللها التقييد او التخصيص . وان للقانون حكمة هي مناط التقنين يعلم بمراعاتها الواجب والجائز والمحظور ولو لم يكن مصرحاً بالوجوب او الجواز او الحظر . وختم كلامه بقوله انهما من علماء القانون المجتهدين . لا من الجامدين عَلَى ظواهر نصوصه .

وخلاصة القول ان مجالسه لا يخلو من فائدة . وان جليسه لا يعدم من اقتباس نادرة . او التقاط شاردة . ولو كان في خلال الفكاهة والمزاح والاحماض فيستفيد منه اهل كل طبقة سواء كانوا من علماء الشريعة او الادب والعربية . او التاريخ والآثار . او الحكمة الطبيعية والفلسفة العقلية . او السياسة والاجتماع . حتى المتصوفين فانه كان يرشد بعضهم الى الكتب النافعة فقد رأيته مرة يرشد بعض مشايخ الطرق الصوفية المتفقهين الى كتاب قواعد التصوف الجامع بين الشريعة والحقيقة . وواصل الاصول

والفقه بالطريقة تأليف الامام ابي العباس احمد البرنسي المغربي الشهير بابن زروق وهو كتاب نادر المثيل بهذا الموضوع . جاء في القاعدة التاسعة عشرة منه . اعتبار النسب في الموانع يقضي بتخصيص الحكم عن عمومه وفي الثالثة والعشرين . طلب الشيء من وجهه وقصده من مظانه اقرب لتحصيله . وفي الرابعة والعشرين ماظهرت حقيقة قط في الوجود الا قوبلت بدعوى مثلها وادخال ماليس منها عليها ووجود تكذيبها . وفي القاعدة الاربعين . ما كان معقولاً فبرهانه في نفسه فلذلك لايحتاج لمعرفة قائلة الا من حيث كون ذلك كمالاً فيه والمنقول موكول لامانة ناقله فلزم البحث والتعريف لوجهه وما تركب منهما احتيط له بالتعرف والتعريف الخ وهذا التفصيل في حق المشرف على العلم الذي قد استشعر مقاصده . واما العامي ومن كان في مبادئ الطلب فلا بد له من معرفة الوجه الذي يأخذمنه معقوله كمنقوله ليكون على اقتداء لا على تقليد . وفي الحادية والاربعين . التقليد اخذ القول من غير استناد لعلامة في القائل ولا وجه في المقول فهو مذموم مطلقاً لاستهزاء صاحبه بدينه والاقتداء الاستناد في اخذ القول لديانة صاحبه وعلمه وهذه رتبة اصحاب المذاهب مع أئمتها فاطلاق التقليد عليها مجاز

والتبصر اخذ القول بدليله الخاص به من غير استبداد بالنظر ولا اهمال للقول وهي رتبة مشايخ المذهب واجاويد طلبة العلم والاجتهاد اقتراح الاحكام من ادلتها دون مبالاة بقائل وهو مطلق ومقيد . وجميعها على هذا النسق من غرر الفوائد . كقولة الفقه مقصود لاثبات الحكم في العموم فمداره على اثبات ما يسقط به الحرج . وقوله : اتباع الاحسن محبوب طبعاً مطلوب شرعاً ولذا بني التصوف على اتباع الاحسن . ولا يصح العمل بالشيء الا بعد معرفة حكمه ووجهه فلزم العلم ثم العمل ثم النشر والافادة وهلم جرا . وكذلك الرسالة الموسومة بالروضة الانيقة في بيان الشريعة والحقيقة الامام عبد العزيز الدميري الديريني وهي ايضاً رسالة ممتعة ذات فوائد بديعة في هذا الباب منقوش في اولها هذه الابيات .

(قال الشفيق لمن يريد الكشف عن سر الحقيقة)
(ان الحقيقة في الشريعة والشريعة في الحقيقة)
(وانظر الى ذي الروضة الغناء تجد هذا حقيقة)

ومذيلة ببعض الفوائد وبتتمة في اصول التصوف مقتبسة من القواعد الآنفة الذكر منها . اسناد الشيء لاصله والقيام فيه بدليله

الخاص به يدفع قول المنكر لحقيقته · ومنها المتكلم في فن من فنون العلم ان لم يلحق فرعه باصله و يحقق اصله من فرعه و يصل معقوله بمنقوله و ينسب منقوله لمادته و يعرض مافهم منه عَلَى ماعلم من استنباط اهله فسكوته عنه اولى من كلامه فيه اذ خطأه اقرب من اصابته وضلاله اسرع من هدايته الا ان يقتصر عَلَى مجرد النقل المحرر من الايهام والابهام (فرب حامل فقه غير فقيه) فيلم له نقله لاقوله · ومنها اذا حقق اصل العلم وعرفت مواده وجرت فروعه ولاحت اصوله كان الفهم فيه مبذولاً بين اهله فليس المتقدم فيه باولى من المتأخر وان كان له فضيلة السبق فالعلم حاكم ونظر المتأخر اتم لانه زائد عَلَى المتقدم والفتح من الله مأمول لكل احد ولله در ابن مالك رحمه الله حيث يقول: اذا كانت العلوم منحاً الهية ومواهب اختصاصية فغير مستبعد ان يدخر لبعض المتأخرين ماعسر عَلَى كثير من المتقدمين · نعوذ بالله من حسد يسد باب الانصاف و يصد عن جميل الاوصاف · الى غير ذلك من مكنونات الجواهر · وغرر الدرر

وقد طبع هذان الكتابان بدلالته وتشويقه · وهذا مما يدل عَلَى حكمته وميله الى حمل المتطرفين من اسيء قبيل عَلَى التزام جانب الاعتدال ·

وكانت مجالسه تختلف باختلاف الجلاس لشدة حذره من الناس . واذا اراد ان ينتقد احداً او جماعة لا يصرح بالاسم بل يقول بلغني عن رجل لا ينبغي ذكره او جماعة لا ينبغي ذكرهم كذا وكذا . كما انه يهذب بعض جلسائه بالتعريض بدون تجبيه وكان على رحابة وجهه وبشاشة محياه تغلب عليه حدة المزاج فينهر بعض الاحيان في وجوه المتغطرسين والمتعجرفين والمتحذلقين والمتقعرين والمتخرقين والثرثارين المتفيقهين الذين يعرفون بالا يعرفون ويصدهم وربما انب بعضهم او ترك المجلس وانصرف ولهذا كثر الناقمون عليه وقل الثابتون على صحبته وبالنظر لتفرده في اطواره ومشربه يحار الذين لا وقوف لهم على طبائعه اذ لا يعرفون ما يرضيه وما يغضبه فيحاولون ان يتقربوا اليه بحديث يظنون انه يرضيه فيغضبه فالذي يمارسه يذوق من هذه الصدمات في بداية الامر ما يؤهله لأن يكون في نجوة منها فيما بعد .

واما ارباب البلاهة او السذاجة او صفاء القلوب فلا ينهرهم بل يهش لهم ويبش ويحسن ايناسهم ويتسامح معهم ويغتفر لهم ما لا يغتفره لغيرهم ويصادق في الاغلب على كلامهم وربما ثقف اود اعوجاجهم باللطف والضحك ولين الجانب . وكان لا يبالي بمن

يقدح به وينال منه او يهجوه سواء بالقول او النشر على صفحات الجرائد . بل يتلقى ذلك اذا كان صادراً عن رعونة وحسد بالضحك والاستخفاف بالقادح وبعقله ويقول ان امثال هؤلاء ينبغي ان لا يعبأ بهم لان الرد عليهم يكسبهم قيمة لا يستحقونها فليتركوا وشأنهم تلك سنة طبيعية في البشر واذا كان صادراً عن سذاجة وتغرير يقول ان نحو هؤلاء معذورون وربما احال عليهم من يقلب افكارهم . وكان يقول نحن قانطون من اصلاح الآباء فعليكم بارشاد الابناء قبل ان يتطبعوا بطباع آبائهم واذا رأى ان احد الابناء ينتقد عادات ابيه الفاسدة يقول والاغرب ان ابناءهم لا يوطئونهم على خططهم الفاسدة وآرائهم السخيفة .

وكان سريع الحركة مكثراً من التجول لا يقر له قرار فاذا لم يضرب كل يوم مئات من الاذرع في المدينة وضواحيها لا يهنأ له بال ولا يصفو له عيش كأنه موكل بفضاء الارض يذرعه

كان لا يعرف الرفاهة والنعيم فلا يبالي بطيب المطعم ولين المضجع وفاخر الاثاث والرياش فيرتدي اقدم والاطمار البالية بغير زينة ولا هندام . وكانت جيوبه واعبابه مفعمة على الدوام من الرسائل والدفاتر والجرائد والمجلات والكناشات والاوراق كأنها

حانوت وراق و يستصحب معه على الاغلب شيئاً من الزاد وا غذاء وكان فراشه محاطاً بسور من الكتب والاوراق والمحابر والاقلام وا كواب الشاهي والقهوة البنية وادواتها لشدة غرامه بهما و بتدخين لفائف التبغ (السيكارات) . وكان على قدر زهده باللذائذ المادية راغباً باللذائذ الادبية وهي لذة العلم ولذة الحرية والاطلاق فكما انه لا يقدر ان يصبر عن العلم والدراسة لا يقدر ان يتقيد بقيد سوى ما قيده به الشرع والعرف فكان ابعد الناس عن كل ما من شأنه تشويش الذهن وتقييد الفكر ووخز الضمير لهذا لم يتزوج مع علمه ان لا رهبانية في الاسلام لعلمه ان للزوجة حقوقاً شرعية يجب آداؤها واستغراق اوقاته في العلم والسياحة لاجله والدعاية اليه يحول دون اداء حقوقها وحسن عشرتها . وكيف يتفرغ للزوجة والبنين والكسب الطيب لاعاشتهم من كان يقضي ليله سهراً و يواصله بالنهار في الدرس والبحث والتنقيب والتأليف والدعاية .

وكان بزهده بالأثاث والرياش وميله الى الحرية الشخصية والاطلاق . والاستغراق بالعلم . وعدم تقيده برسوم الزينة والابهة ومظاهر الفخفخة اشبه بالفارابي او الشهاب السهروردي واضرابهما من فلاسفة الاسلام .

وقد تبين مما اسلفنــا من بيان سيرته واطواره وطباعه انه يعسر ان يشغل منصباً سياسياً او ادارياً او قضائياً كما يعسر ان يمتهن بالمحاماة وجميع ما من شأنه مداراة الناس وفرط مجاملتهم والحجر عَلَى حرية الاطلاق فالقاضي مثلاً لابد له من التقيد بقيود كان الفقيد ابعد الناس عنها . والسياسي والاداري مضطران وفقاً لمقتضى الحال ودواعي المصلحة الى المجاراة والمجاملة والتجانب بخلاف ما يكنه الضمير . وذلك لاينطبق عَلَى اطوار الفقيد .

لكنه خليق بان يستفتى في كثير من الشؤون السياسية والادارية وفلسفة القضاء والتقنين . وربما كان رأيه أقرب الى السداد والصواب من آراء كثير من اولياء الامور واهل الحل والعقد . كما شهد له بذلك كثير من كبار الساسة وارباب الاخصاء بالادارة والقضاء . وقد رأيت فيما سلف انه كان ينبئ بقوة حدسه عما سيحدث من الوقائع قبل وقوعها . ولطالما كان ينتقد عَلَى اولياء الامور خططهم في السياسة والادارة و ينذر بما سينجم عنها من سوء المغبة ثم يقع ما انذر به وتضطر الحكومة الى تبديل خطتها . كما ان العاصمة بعض الاحيان كانت تصدر

اوامر مخالفة لمقتضى الظاهر لكنها موافقة لمقتضى الحال الخفية التي لا تظهر حكمتها لكل انسان فكان يملّ صدورها ويظهر حكمتها الى ان تتجلى بطبيعتها للملأ فيما بعد من الزمن ·

مولده ونشأته ونسبه وحليته

ولد سنة ١٢٦٨ هجرية بدمشق ونشأ في حجر والده الشيخ محمد صالح الجزائري مفتي السادة المالكية في قاعدة الديار الشامية · وهو من فقهاء الجزائر المهاجرين الى الشام توفي بدمشق ودفن بمقبرة باب الصغير · قرأ الفقيد بادئ الامر على ابيه حتى اتصل بعلماء العصر · ويقال انه صحيح النسب الى سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما · ولم يكن الفقيد يخبر بذلك لان انتسابه الى العلم يكفيه · لكنه حينما سأله بعض اصحابه اجابه كذا يقولون · ومحك نسب الانسان عمله · وما احسن ما تقوله العامة عن نسب المرء · اذا غاب عنك اصله فدلائله فعله ·

كان رحمه الله حسن الطلعة معتدل القامة والجسم حنطي اللون واسع الجبهة اسود الشعر والعينين يضع عليهما منذ اربعين سنة منظرتين ذا لحية كثيفة عصبي المزاج سريع الحركة واسع الخطوة ·

أواخر ايامه ووفاته

لما شعر وهو في مصر بتمكن المرض منه وانه يوشك ان تنشب المنية اظفارها به وَدَّ ان يموت في مسقط رأسه و يدفن في التربة التي نشأ منها فقدم دمشق وقد ناخ عليه الهرم بكلاكله. تغير جسمه واشتعل شيبه وضعفت قواه لكن لم يتغير خلقه ولم يشب فؤاده ولا تضعف همته فكمث اربعة اشهر عاكفاً حسب عادته على الصلاة والدعوة الى الخير بهمة لاتعرف الملل. وعينته الحكومة العربية مديراً عاماً لدار الكتب العربية التي اسست بسعيه منذ اربعين سنة وسمي عضواً في المجمع العلمي. ولم يزل مرضه آخذاً بالازدياد حتى دعاه داعي المنون و كتب العلم محيطة بفراشه فتوفاه الله تعالى قبيل ظهر الاثنين في اليوم الرابع عشر من ربيع الثاني سنة ١٣٣٨ هجرية والخامس من كانون الثاني سنة ١٩٢٠ ميلادية فغسل بالدموع وحنط بطيب الثناء وهرع الى تشييع جنازته بقايا اصحابه واخوانه وقدماء مريديه وكثير من اهل العلم والفضل وكبار موظفي الحكومة وتلامذة المدارس واساتذتها يحيطون بنعشه احاطة الهالة بالقمر وهم يذرفون

العبرات ولسان الحال يقول منشداً:

(ان ماء الجفون ينزحه الد
م وتبقى الهموم والاحزان)
(ليس يأسو جوى المرازي ما
صفحته الشؤون والاجفان)

حتى واروه قبيل الغروب في رمسه بسفح قاسيون بمقبرة ذي الكفل بموجب وصيته.

(صلى الاله على جسم تضمنه   قبر فأصبح فيه الفضل مدفونا)
(قد حالف العلم لا يبغي به بدلاً   فصار بالعلم والايمان مقرونا)

---

(١) البيتان من كلام ام المؤمنين السيدة عائشة ترثي اباها الصديق الاكبر رضي الله عنها. والمرازي من مات خيار قومه ومثله المرزأ. والشؤون هنا مجاري الدمع كما في بلاغات النساء وتعليقاته التي علقها عليه ناشره الشيخ احمد الألفي المصري قال في ديباجته والفضل في ارشادي اليه يرجع للعلامة المحقق الشيخ طاهر الجزائري

(٢) البيتان من كلام سودة بنت عمار الهمدانية رحمها الله ترثي بهما امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه بحضرة معاوية ابن ابي سفيان رضي الله عنه كما في البلاغات ايضاً. وقد ابدلت لفظتين بغيرهما مناسبة للمقام فابدلت لفظة العدل بالفضل ولفظة الحق بالعلم فاقتضى التنبيه. اه مؤلف.

طيب الله ثراه . واحسن مثواه . وبوأه حظيرة قدسه . وفراديس جنانه . واحسن عزاء الامة به .

(تنبيه) بما ان التنصيص لايدل على التخصيص . وذكر الشيء لاينفي ماعداه لايلزم من التنصيص على مناقب الفقيد خلو غيره من الفضائل والمناقب . بل ان للعلماء الذين ادركناهم في مصر والشام وغيرهما فضائل جمة . وان كل واحد منهم مختص بفضيلة يفوق غيره بها كما ان غيره يفوقه بفضيلة غيرها .

وربما يزعم الذين لم يسبروا الفقيد مثل ما سبرناه وعجمناه انني اغرقت في اطرائه وانني متشيع له . وحقيقة الامر انني اثبت ماحفظته والمثبت مقدم على النافي . ومن حفظ حجة على من لم يحفظ . ومن وجد غلطاً في بعض ماعزوته للفقيد من الفواضل والفضائل فليتفضل علي بتصحيح غلطي رعايةً لحقوق التاريخ على حين انني تحريت الصحة ونقلت ماشهدته بنفسي . وتأكدته من غيري وربما اغفلت كثيراً مما لم احط به لعلمي انه لايليق بالمؤرخ التشيع او التقية او التعصب او التحامل لان ذلك مضيعة للحقائق تضليل للاذهان كذب على العباد والكذب حرام شرعاً قبيح عقلاً .

خاتمة

ان ما اسلفته من تبيان سيرة الفقيد برهان كاف واف لاثبات عظمته . وانه من كبار العظماء واقطاب العلماء والحكماء وان مصاب الامة العربية واهل الملة الاسلامية بفقده اعظم لانني اعتقد ان علة انحطاطنا وتقهقرنا هو فقط الرجال . فلو كان عندنا من الحكماء المصلحين ما يكفي عددهم للتغلب على رأي مجموع الامة . واقتيادها الى ساحة منجاتها الناجحة . والابتعاد بها عن بؤرة بوارها الجائحة لما استحكمت منها امراضها الاجتماعية التي حاقت بها منذ احقاب وازمنت حتى كادت تودي بها . لانهم يشخصون دائها . ويصفون دوائها . ويعلمون كيفية استعمال العلاج لمقاومةِ المرض اذ الطبابة ليست معرفة الالم لان المريض الوجع اخبر بوجعه من الطبيب لتحسسه به . ولا معرفة الادوية وخواصها لان كثيراً من الصيادلة وباعة العقاقير يعرفون ذلك . لكن الطبابة اكتشاف سبب الالم بتشخيص المرض ومداواته بمعرفة تركيب العلاج على مقتضى المقادير الكيماوية المتناسبة مع المرض . ومعرفة استعمال العلاج بالكم والكيف والوقت .

وبما ان العالم الادبي كالعالم المادي في الاتحاد بالنواميس الطبيعية . والترتيب على هذا النظام البديع بانبعاث المسببات عن اسبابها وارتباط المعلولات بعللها لانهما فطرة الله واحدة .

كانت الامراض الاجتماعية كالامراض الجثمانية . وطب الاجتماع كطب الاجساد . فلا يعقل ان يكون طبيب المرضى عليلاً . ولا قائد العميان ضريراً كما لا يعقل البرء من المرض العضال .

ونحن مع اتحادنا جميعاً من خاصة وعامة بالشعور بهذا المرض لاحساسنا بالالام المنبعثة عنه لانتباهنا من رقاد الاغماء بتنبيه امثال فقيدنا عاجزون عن تشخيصه وتوصيف العلاج الناجع لتقلصه غير اننا نتناول البحث باعراضه . وكل قبيل منا يشكو آلامه المتعلقة باختصاصه . وربما حصر الداء والدواء بهذه الدائرة .

فالقابض على دينه يشكو المروق من الدين او التهاون به او الانحراف عن نهجه القويم . ويرى ان الدواء التدين واقتفاء صراط الدين المستقيم .

والمادي يتذمر من فقدان القوة وينشد العلم باسرار الطبيعة واستخدامها لمضارعة الامم القوية بحديدها وبخارها وكهربائيتها وسلاحها .

والجندي يشكو الجبن وضعف الوطنية والجهل بافانين الجندية وفقدان الاعتاد الحربية .

والمالي يرى ان علة انحطاطنا فقرنا المنبعث عن جهالتنا بعلم الاقتصاد واصول نمو الثروة واسباب رقي الزراعة والتجارة والصناعة .

والاشتراكي يحصر مصابنا بانحصار الثروة بيد اشخاص محدودين يكنزون الذهب والفضة او يبددون الاموال بالسفه والبذخ والترف علَى حين ان الاكثرية يتضورون جوعاً و يذوقون الامرّين حراً وقراً .

والديمقراطي يتذمر من سادات الامة وكبرائها الذين اضلوها السبيل . وادعوا الميزة عليها . وانتحلوا لانفسهم ألقاباً ما انزل الله بها من سلطان . واحتكروا السلطة وداسوا رقاب العباد واغتصبوا حقوقهم . وفادوا بالمرافق العامة في سبيل منافعهم الخاصة .

والارستقراطي يتأفف من عدم توقير الصغير الكبير . وتطاول الاسافل الذين تسربلوا بسربال الفضيلة وهي منهم براء علَى الاعالي .

والاجتماعي يقول بذلك كله و يضيف اليه سوء الادارة

وافن الرأي في السياسة . وتحريف الشرائع ودوس القانون او الاحتيال عليه . وظلم الحكام وجهل الرعية ومروقها من الاخلاق الفاضلة وحرمانها من التربية الصحيحة .

لا جرم ان كل قبيل اعرب عما عنده وان الجميع مصيبون باقوالهم لكنها ليست هي المرض الاساسي بل هي اعراضه . اذ لو كان داءنا عدم التدين مثلاً فما يمنعنا او من يمنعنا عن التدين . او لو كان داؤنا فقدان القوة ودواؤنا العلم باسرار الطبيعة لاستخدامها فلماذا لا نتعلم لنستخدمها . او لو كان عدم الاخلاق فلماذا لا نتخلق وهلم جرا . مما يدل على ان وراء ذلك سبباً عظيماً ربما كان علة العلل وسبب الاسباب . الا وهو مرض الفالج الذي حاق بالأمة فاورثها هذا الشلل العام . وجميع ما نتحسس به من الآلام ونتذمر منه هو من اعراضه .

فكل منا يشكو ولا يستطيع ازالة ما يشكو منه بل يتطلب ذلك من غيره كالمفلوج فانه يريد ولكنه عاجز عن تنفيذ ارادته بيده المشلولة فيطلب الى غيره تنفيذها . فترى احدنا مثلاً ينتقد الحكومات وجميع الطبقات ويريدها على النظام والانتظام وهو عاجز عن تنظيم شؤون نفسه وادارة منزله وتربية اسرته . فكل

منا يقيس ويفصل وينظم ولكن على حساب غيره فكأن غيرنا المكلف بكل شيء واحدنا معفو من كل شيء يغتفر له ما لا يغتفر لغيره .

ولولا اننا مصابون بهذا المرض لبادرنا الى اصلاح انفسنا ومن يجب علينا اصلاحه ممن تلزمنا نفقته قبل ان ننشد الاصلاح لغيرنا .

وكما يستحيل عادة شفاء المريض الذي نزل به الفالج واستحكمت حلقاته منه الا بالموت كذلك الجيل من الامة اذا اصيب به وازمن خصوصاً اذا تأصل منــذ احقاب متطاولة يستحيل ارتفاعه الا بانقراض هذا الجيل ونشوء نبت جديد يتربى على الفطرة النقية تربية سالمة من شوائب تربية سالفه المنقرض .

فهذه الامم التي اسست مجدها او استعادته لم تبلغ هــذه الامنية الا بهذه الوسيلة فان حكماء الامريكان واليابان لما اعيتهم الوسائل لاصلاح ابناء جيلهم وادركوا استحالة برئهم عمــدوا الى تربية النابتة الجديدة والايغال في تعليمها ناهجين بتربيتها وتعليمها مناهج مباينة لمنهج تربية الآباء فلم يمض زهاء نصف قرن حتى تغلب العلم على الجهل والصلاح على الفساد .

فلا مناص والحال هذه من شقائنا ولا سبيل الى شفائنا

من امراضنا ونهضتنا واسترجاع مجدنا الباذخ الا بالتعليم والتربية كما نهج غيرنا على يد حكماء امثال فقيدنا .

وجميع انقلاباتنا السياسية السريعة التعاقب لم تغير ما بنا سوى تغيير الاسماء والاوضاع لان اخلاقنا لم تتغير والله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ولن تجد لسنته تبديلاً .

فهؤلاء اغلب مشايخنا الذين هم مناط الارشاد والتهذيب يتجرون بالدين وتفاقم خطبنا بالدجالين الذين هم ضغث على ابالة

وكثير من الشبيبة المستنيرة الذين تعقد بنواصيهم الآمال يتجرون بالوطنية .

واكابر المجرمين يتجرون بالتزلف والمصانعة والمساومة على مصالح الامة ومرافق الوطن .

وتجار التجار يفرحون بالقحط والجوائح ليتمكنوا من الاحتكار واستنزاف الاموال . ولا وجود للمصلحة العامة في قواميس ادمغتهم سوى رواج تجارتهم وربح صفقتهم .

وسفلة السوقة لا يهنأ لهم بال ولا يصفو لهم عيش اذا لم يغشوا ويطففوا المكيال والميزان .

واهل الدعارة من اخلاط العامة من بدو ومن حضر

يفرحون بالحريق او الثورات لاجل السلب والنهب ·

والمتمولون الذين يجمعون ثروتهم من كل مذهب ودرج من انواع الكسب الخبيث ويكنزون الذهب والفضة بدلاً من ان يؤدوا ما يجب عليهم في اموالهم من حق السائل والمحروم اصبحوا يسلبون مابقي بيد البؤساء ليزيدوا غناهم بافقار غيرهم · ولا حظ لهم من الدين ولا نصيب لهم من الدنيا الا قبض النقود وعدها وكنزها · والاغرب ان بعض بخلاء المتمولين المتكالبين على الدنيا المداجين بالتنطع بالدين اذا اخبره مخبر انه ظهر (لاسمح الله تعالى) لابرهة الحبشي خلف جديد يريد هدم الكعبة التي تستقبلها ونحج اليها وقد افتديناها بشقص من المال صالحناه عليه وطلب اليه الاكتتاب بما تجود به اريحيته فانك تراه يحوقل ويحسبل ويقلب جبرياً محضاً ويقيم لك مئات من الادلة على ان هذا قضاء الله تعالى وقدره · وان المقدر كائن لايمحي وانه يجب علينا الخضوع للقضاء والقدر وان لانتعرض لمصادمة الارادة الازلية · وان هـذا آخر الزمان ويتلو عليك احاديث موضوعة او محرفة التأويل عن المراد منها فيما اذا كانت صحيحة السند واخباراً ملفقة تشد ازر الجبر حتى يزهق روح سامعيه ليصرفهم عنه تفادياً عن اداء مقدار زهيد من

امل لا يساوي ذرة مما يجب عليه من الزكاة التي محي حسابها من دفاتره . واذا اوجد اصراراً بالمطالبة وان لا محيص من الاكتتاب يقطب وجهه ويرغي ويزبد وينقلب قدرياً محضاً . ويكتب على نفسه بيده المرتعشة شيئاً من المال يخجل افقر الفقراء والمساكين الاكتتاب باضعافه .

ونرى بعضاً من الناس يريدون الخير العام لكنهم يريدونه كلقمة سائغة فيتلمسونه على غير ايديهم ضناً منهم بالنفس والنفيس .

فهذا جيلنا وهذه طبقاته وما الحكومات الا غصن من هذه الشجرة او نبت من هذه البيئة . فاليوم الذي يصلح فيه الشعب تصلح (١) فيه حكومته التي هي بودقة من رقعته .

(١) بهذه المناسبة اذكر اني رأيت في بعض الصحف ما خلاصته : ان رجلا انكليزياً زاره احد اصدقائه الغريب عن مملكته فتجولا للصيد في احدى براري انكلترا فقصد كل منهما جهة يصطاد بها ثم تلاقيا فقال الغريب لمضيفه انظر الى هذا الطائر ما اجمله فقد اصطدته من غابة في هذه الجهة فقال له الانكليزي كيف توصلت اليها وهي محظورة على الصيادين . وكيف لم تصد انت . والحكومة تغرم كل من يصطاد منها . فقال الغريب . اني اجهل ذلك وعلى كل حال فانني لم الق احداً ولم يرني احد . فقال له الانكليزي لا تقل ذلك . الم اعلم انا . الم انظر اليك انا . فانا الحكومة والحكومة انا . وانطلقا معاً الى الشرطة وأدى عن —

هذا واني لا اعني بكلامي الطعن على فريق بعينه بل هو مفوق على المجموع لا على الجميع لانه ما من عام الا وقد خص . فقد يوجد بين جميع هذه الطبقات من هو جدير بالثناء والاحترام . لكنهم ويا للاسف مغلوبون على امرهم للاكثرية الغالبة .

نعم اني لا انكر اننا بفضل النهضة الفكرية الحديثة التي كان فقيدنا من اركانها استيقظنا من سباتنا العميق . واصبحنا نحس ونشعر ونتألم كمن كان مصاباً بالاغماء والفالج ثم زال عنه الاغماء فبزواله يتحسس بألم المرض ويشعر بنفسه انه مريض مثل شعورنا اليوم بأمراضنا الاجتماعية وعلمنا بجهلنا ولكن تحسس هذا المصاب بالمرض العضال وان كان لا يزيل المرض لكنه ربما يفيد ابنه اذا نصح له ابوه ان يعتبر به ويتقي الاسباب الذي اورثت أباه هذا المرض واذعن الابن نصيحة ابيه .

كذلك نحن لا نبرء من امراضنا المزمنة ولا ينجع بنا علاج

— ضيفه الغرامة المترتبة على ذلك فهذا سر تقدم امم الغرب من انكليز وافرنسيس والمان وطليان واميركان وعكسه سر تاخر امم الشرق ما عدا اليابان فمتى صار السوري او العربي مطلقاً مثل هذا الانكليزي او خلافه وعاد الى سيرة اجداده العظام تصير له حكومة مثل حكوماتهم وكما تكونوا يولى عليكم . اه مؤلف

الا اذا فكر عقلاؤنا وحكماؤنا بتسليم اطفال امتهم الذين لم تفسد فطرتهم بعد الى التربية والتعليم طوعاً او كرهاً . والسير بهم على غير منوال سيرنا كما نهج غيرنا من الامم الذين استردوا مجدهم وسادوا وجادوا . والا فعبثاً نحاول اذ من العناء رياضة الهرم . ومن التعذيب تهذيب الذيب . وقد قيل (لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم ولا تعالج تأديب من لا يتأدب) أعند شيبي يبتغي مني الادبا ! . ولن تجد لسنة الله تبديلا .

كلمة الى النابتة الجديدة

وانتم ايتها النابتة الجديدة اطفال اليوم رجال الغد عليكم بالتدين والاخذ بآداب الشريعة السمحاء واياكم والمروق من الدين او التهاون بتكاليفه فان من لا دين له لا خلاق له . ولا عهد ولا ذمة . ولا امانة ولا ذمام . عليكم بالعلم الصحيح والاخلاق الفاضلة فان الامم الجاهلة العاطلة من الاخلاق نصيبها في الحياة الدنيا نصيب العجماوات من الذلة والاستعباد . عليكم بالتجدد لتقتطفوا النافع من كل جديد وتنبذوا الضار . واياكم والجمود والتقليد الاعمى اشربوا قلوبكم يا بنيّ حب الوطن فانه من الايمان وحب الوطنية

وهي اغتباط الانسان بسعادة اهل وطنه العام وهم ابناء قومه وجامعته الذين هم متكافلون متحدون بالغرم والغنم و يد واحدة على من سواهم . وحب الانسانية وهي اغتباط الانسان بسعادة جميع اخوانه بالانسانية . وليكن مبدأكم (ما احلى شقاء الفرد في سبيل سعادة الجماعة) لان هذا الشقاء هو عين السعادة . وليكن الرجل الفاضل في نظركم من كان عائشاً لخدمة امته ووطنه اكثر من كونه عائشاً لخدمة نفسه واسرته . وليكن وردكم من القرآن الحكيم (يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) ومن الحديث الشريف (لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه) وليكن ترنمكم من الشعر قول شاعرنا العربي الحكيم :

(ولو اني حبيت الخلد فرداً لما احببت بالخلد انفراداً)

(فلا هطلت علي ولا بارضي سحائب ليس تنتظم البلادا)

ليكن هدفكم المصلحة العامة المندرجة طيها المنفعة الخاصة اذ بسعادة المحيط تسعد الافراد . واياكم وحب الاثرة والانانيـة والمفاداة بالمصلحة العامة في سبيل منفعتكم الخاصة فتخسروا الصفقتين وتبوءوا بخزي الدنيا وعذاب الآخرة كما خسر و باء من سلفكم ممن يبررون كل وسيلة و يقترفون كل حيـلة و يفادون بكل فضيلة

للحصول على امنيتهم المنشودة ولو افضى ذلك الى هلاك العباد ودمار البلاد وطمس الشرائع ودوس القوانين لان مبدأهم المقدس عندهم قول الشاعر (اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر) والمثل العامي (من بعدي ماينبت حشيش) والرجل الفاضل في نظرهم الفاسد من تشقى الامة في سبيل سعادته وتعيش تخدمه فاياكم ان تنهجوا منهجهم فيصيبكم ما اصابهم. اياكم الملل والكسل. وعليكم بالثبات والمثابرة على العمل وبالحزم والعزم يتم الظفر. تجشموا اعظائم الاعمال تبلغوا مبالغ عظماء الرجال. ولتكن لكم همة تناطح الثريا وتطاول الجوزاء لتذللوا العقاب وتقتحموا الصعاب فقد قيل (السهولة شرك الاواسط من الناس فلا تنشب بعظيم ابدا) وقال شاعرنا العربي الحكيم:

(على قدر اهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم)
(وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم)

وقال

(واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام)

واعلموا يا بني واعزتي انه لامجد كمجد من يخدم وطنه لكن الوطنية الصحيحة لاتتكلم كثيراً ولا تعلن عن نفسها فاياكم وثرثرة الذين يتجرون بها واعلموا ان الاثرة والوطنية لاتجتمعان في قراب واحد لان الاثرة بنت الرذيلة والوطنية بنت الفضيلة وكيف يتسع القلب لنقيضين . عليكم يا بني بالقيام بالواجب ولو عرقل مسعاكم الاشرار فقد قال بعض العقلاء (علي ان اقي بوظيفتي وما علي ضمان القضاء) ينبغي عليكم ان تزداد همتكم كلما ازداد تحرش الاشرار بكم وطعنهم عليكم ما دمتم ناهجين سبل الحق قال بعض الحكماء : (من حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق وان آلمتها في اول صدمة كان اغتباطه بذم الناس اياه اشد واكثر من اغتباطه بمدحهم اياه) .

(واذا اتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي باني كامل)

وقال بعضهم ايضاً (ان الاشرار يتحاملون على النفوس الشريفة بيد انهم لا يستطيعون لها اذى لانها اي النفوس الشريفة . كالصخور الصوانية تطغو عليها امواج البحر عند هبوب العواصف فيخيل انها قد اغرقتها وهي قد غسلتها فتعود في نور الشمس اكثر جلاء) . اياكم يا بني والصعود السريع بدون سلم الارتقاء الطبيعي

اذ لابد ان يعقبه الهبوط السريع فعلى قدر السرور في البداية يكون الحزن في النهاية. وقد قيل (ينبغي للمرء ان لا يفرح بمرتبة ترقاها بغير عقل. ولا بمنزلة رفيعة حلها بغير فضل. فلا بد ان يزيله الجهل عنها ويسلبه منها فيحط الى رتبته. ويرجع الى قيمته بعد ان تظهر عيوبه. وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجياً. وصديقه معادياً) يجب عليكم محبة الناس وارادة الخير لهم ولكن لا يجوز لكم مصاحبة جميعهم لان المصاحب لبطانة السوء كراكب سفينة شراعية في لجة البحر ان نجا من العطب فلا ينجو من الخطر والتعب. يجب عليكم ان تعلموا ان من اطاع الناموس مادياً كان او معنوياً عاش بدون خوف وان خير العقوبات واحكمها العقوبات الطبيعية التي تنجم عن مخالفة القانون الطبيعي لانه لا يرعى حرمة كبير ولا يرحم ضعف صغير. ينبغي عليكم ان تنعموا النظر بسيرة العظماء كسيرة فقيدنا وغيره وتتأسوا بها فقد قال بعض الحكماء. تاريخ العظماء عمر آخر للناظرين يثبت في القلوب عاطفة الخير واجابة نداء الواجب اخاطبكم يابني واعزتي بقول شاعر النيل الحكيم حافظ ابراهيم:

(اهلاً بنابتة البلاد ومرحباً

جددتم العهد الذي قد اخلقا)

(لا تيأسوا ان تستردوا مجدكم
فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى)
(مدت له الآمال من افلاكها
خيط الرجاء الى العلا فتسلقا)
(فتجشموا للمجد كل عظيمة
اني رأيت المجد صعب المرتقى)
(من رام وصل الشمس حاك خيوطها
سبباً الى آماله وتعلقا)
(فتعلموا فالعلم مفتاح العلا
لم يبق باباً للسعادة مغلقا)
(ثم استمدوا منه كل قواكم
ان القوي بكل ارض يتقى)

وبقوله ايضاً :

(رجال الغد المأمول انا بحاجة
الى قادة تبني وشعب يعمر)
(رجال الغد المأمول انا بحاجة
الى عالم يدعو وداع يذكر)

(رجال الغد المأمول انا بحاجة
الى عالم يدرس وعلم يقرر)
(رجال الغد المأمول انا بحاجة
الى حكمة تملى و كف تحرر)
(رجال الغد المأمول انا بحاجة
اليكم فسدوا النقص فينا وشمروا)
(رجال الغد المأمول لا تتركوا غداً
يمر مرور الامس والعيش اغبر)
(رجال الغد المأمول ان بلادكم
تناشدكم بالله ان تتذكروا)
(عليكم حقوق للبلاد اجلها
تعهد روض العلم فالروض مقفر)
(قصاري مني اوطانكم ان ترى لكم
يداً ني تبنى مجداً ورأساً يفكر)
(فكونوا رجالاً عاملين اعزة
وصونوا حمى اوطانكم وتحرروا)

ولا حاجة بي يابني الى الاكثار فان الذكي يدرك بمثال واحد

مالا يدركه الغبي بالف شاهد واستودعكم الله راجياً لكم ان يكون عهدكم خيراً من عهدنا لانه مضى وانقضى ونحن في جلاد مستمر يوم لنا وايام علينا . ويوم نسر واعوام نحزن . فتيقظوا لعهدكم وكونوا على حذر فالسعيد من وعظ بغيره ومن انذر فقد اعذر والسلام على من اتبع الهدى .

وهذا آخر ماسهل الله لنا ايراده وهو يقول الحق ويهدي الى سواء السبيل .

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون . وغفل عن ذكره الغافلون

تمت

(ندر بالطبع ان يخلو الطابع من خطأ وصواب)

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤	١٣	التصيص	التنصيص
٥	٠٨	نوحيه	توجيه
١٠	١٣	الوظيعة	الوظيفة
١١	١٧	المستع	المستعر
٢٣	١٥	عرق	عاق
٣٨	١٦	استمخ	استمح
٤٣	٠٥	بالجود	بالجحود
٥١	١٢	لاخلاق	الاخلاق
٥٤	٠٥	قدر	قور
٥٧	١٧	و بفرطوا	او يفرطوا
٨٥	١٧	من والله ما يتحقر	من الله ما يستحقون
٩٩	٠٨	الاذدراه	الازدراء
١٠١	٠٤	الشجع	الجشع
١١٩	١٤	درس	دس
١٢٤	١١	الخصيبة	الخصبة
١٥١	١١	الذي	التي
١٥٦	١٣	الحكم	الحكمة
١٥٨	١٤	بنى ابتند	ابتني